

الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت - دراسة تاريخية -

إعداد الدكتور

حمد بن صالح السحيباني

الأستاذ المشارك بقسم التاريخ والحضارة
بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن دعوة ابن تومرت، التي اشتهرت بين المؤرخين بدعوة الموحدين، قد ظهرت في بلاد المغرب الأقصى، على يد محمد بن عبد الله بن تومرت، وذلك خلال الثلث الأول من القرن السادس الهجري، ثم ما لبثت هذه الدعوة أن انتشرت وأصبح لها كيان سياسي يحميها، حيث امتد سلطانها إلى معظم بلاد المغرب، وأقاليم واسعة من بلاد الأندلس.

وقد قامت دعوة ابن تومرت على أساس عقدي، حيث زعم مؤسسها أن ما يدعو إليه إنما هو الإسلام الصحيح، وأن الأسس الفكرية التي بني عليها دعوته، إنما هي أسس سليمة تنطلق من القواعد الإسلامية الصحيحة. وهذا بلا شك كان من الأسباب القوية التي مكنت تلك الدعوة من الظهور، ثم الذيوع والانتشار، في أنحاء واسعة من بلاد المغرب والأندلس.

وكما انتشرت هذه الدعوة في بلاد المغرب والأندلس، وتمكنت من قلوب بعض الناس فيها. فإن مؤسسها استطاع أن يقيم لها كياناً سياسياً واسعاً في تلك البلاد، وهو ما عرف بدولة الموحدين، حيث تمكنت هذه الدولة من أن تصبح في مصاف الدول الإسلامية المعاصرة لها، حينما أصبح لها نظامها المستقل، وكيانها السياسي القوي.

وقد تناول عدد من الكتاب والباحثين بالدراسة والبحث بعض الجوانب من تاريخ هذه الدولة ونظمها، وقد كنت أحد الباحثين الذين تناولوا نظمها حينما أعددت رسالة

الماجستير بعنوان «النظم الحربية في دولة الموحدين بالمغرب والأندلس» حيث يسر لي ذلك التعرف على هذه الدولة، ونظمها الحربية، إلا أن الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت والتي قامت على أساسه دولة الموحدين لم يتيسر لي بحثه، والوقوف عليه، لأنني حينذاك كنت ملزماً بالخطوة التي وضعتها لرسالتي وهي ما يتناول النظم الحربية فقط، وذلك بالرغم من أهمية دراسة الاتجاه الفكري لتلك الدعوة إذ أنه كان له أثره الواضح في توجيه سياسة الدولة لا سيما في أول أمرها.

ومما زاد من أهمية هذا الموضوع، وأهله لأن يكون ميدانا للدراسة والبحث، تباين آراء الكتاب، والمؤرخين، في تقويمهم لهذا الاتجاه، حيث وصفه بعضهم بأنه اتجاه سني سار على منهج سليم، بينما قال آخرون بخلاف ذلك، حيث وصفوا تلك الدعوة بالغلو والانحراف، وهذا مازاد من عزمي على دراسة هذا الموضوع لعلي أتمكن - بعون الله - من الوصول إلى الحقيقة فيه.

ولمحاولة الاحاطة بكل جوانبه، والتي يفرضها علينا عنوان البحث، فقد جاء هيكله على النحو التالي:

في بادئ الأمر قدمت له بمقدمة مختصرة، تحدثت فيها عن الدعوات، والدول الإسلامية التي ظهرت في بلاد المغرب، حتى ظهور دعوة ابن تومرت وقيام دولة الموحدين، وذلك لكي نتعرف على مكان هذه الدعوة بين تلك الدعوات.

ثم أعقبت ذلك بالحديث عن دعوة ابن تومرت في مراحلها الأولى، حيث تحدثت عن نشأة ابن تومرت، ثم بدئه بدعوته حتى ظهور تلك الدعوة وانتشارها في بلاد المغرب حينما قامت دولة الموحدين.

وبعد ذلك بسطت القول في الأسس الفكرية التي قامت عليها دعوة ابن تومرت حيث ذكرت أهمها، ومدى انسجامها مع النهج الإسلامي الصحيح.

وفي الختام ذكرت موقف أتباع ابن تومرت من دعوته بعد وفاته، حيث تتبعت موقف الموحدين عنها، والمراحل التي مروا بها أثناء تخليهم عن هذه الدعوة.

وقد حاولت خلال هذه الدراسة أن أسلك المنهج النقدي التحليلي، لا السرد

التاريخي ، معتمدا في ذلك - بعد الله سبحانه - على ما خلفه لنا ابن تومرت من تراث
فكرى يصور لنا تلك الدعوة تصويرا دقيقا، بالإضافة إلى ما دونه لنا المؤرخون
المعاصرون لهذه الدعوة من مادة علمية قيمة، أحاطت بمعظم جوانب هذا الموضوع .

تمهيد :

مني العالم الإسلامي ، منذ عصر صدر الإسلام ، حتى عصرنا الحاضر ، بظهور العديد من الدعوات والدول التي لبست ثوب الإسلام ، واتخذته شعارا ظاهرا ، لتحقيق مطامح ومطامع خفية تهدف إلى النيل من الإسلام ، وحرب المسلمين بشعار الإسلام وأسمه ، وما دعوات الرافضة ، والقرامطة ، والعباسيين ، وابن تومرت ، إلا ضربا من تلك الدعوات والدول ، على مدار التاريخ الإسلامي .

وإذا كانت الدعوات ، والدول الثلاث الأولى ، قد كتب عنها كثير من المؤرخين والكتاب المحدثين ،^(١) وأبانوا حقائقها ، وكشفوا زيفها وبطلانها ، فإن دعوة ابن تومرت

(١) من أهم الكتب التي عنت برصد حركة الرافضة ، والقرامطة ، والعباسيين كتاب القرامطة لابن الجوزي ، والمهدي والمهدوية تأليف عبدالرازق حصان ، والفرق بين الفرق تأليف عبدالقاهر البغدادى ، والملل والنحل للشهرستاني ، ومنهاج السنة لابن تيمية ، وكتاب الحاكم بأمر الله ، وأسرار الدعوة الفاطمية تأليف محمد عنان . ولعل أهم الكتب المحدثّة التي اهتمت بدراسة هذه الحركات الثلاث وغيرها من الحركات الهدامة في التاريخ الاسلامي كتاب «وجاء دور المجوس» لمؤلفه عبدالله بن محمد الغريب .

أما دعوة ابن تومرت فقد درسها أكثر من مؤرخ وباحث لكن دراستهم لها لم تكن ببيان وكشف حقيقتها ، واتجاهها الفكرى ، حيث انطلت على بعضهم حقيقة دعوة الموحدين فظنوا بها خيرا ، وفاتهم ما بها من غلو ، فمن المؤرخين القدامى ، ابن خلدون الذى حصر هفوات ابن تومرت بزلة واحدة هي موافقته للرافضة في القول بعصمة الامام حيث قال : «ولم يحفظ عنه فلتة في البدعة ، إلا ما كان من وفاقه الامامية من الشيعة في القول بالامام المعصوم» (ابن خلدون : العبر جـ ١١ ص ٤٧١ - ٤٧٢) .

أما من الكتاب المحدثين فيرى عبدالمجيد النجار أن دولة الموحدين التى أسسها محمد بن تومرت دولة سنية حذت النهج الذى نهجته دولة المرابطين . (عبدالمجيد النجار : المهدي بن تومرت ص ١٢) .

وقد رأى قريبا من هذا الرأى عبدالله علام ، حيث قال : أن دعوة ابن تومرت دعوة إصلاحية إسلامية ، وأن مهديوه ابن تومرت في نطاق إسلامي سنى معتدل . . (عبدالله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٦ - ٦) .

أما محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي محققا كتاب المعجب للمراكشي ، فذكرا أن كثيرا من المؤرخين المشاركة انكروا ما جاء به ابن تومرت ، ونسبوه إلى الدجل والشعوذة ، كما تعقبوا دعاوية بالتفنيد والابطال ، وقد عزا الكاتبان هذا الموقف من قبل هؤلاء المؤرخين المشاركة إلى سبب رئيسي هو . . . لأن المغرب الإسلامي . . لم يكن يعترف بشيء من الولاء للخليفة العباسي في بغداد ، ولم يدع له يوما على منبر من المنابر المغرب لا في الأندلس ولا في الشاطئ الأفريقي . . فما احرى هذا أن يحمل مؤرخي المشاركة على النظر بارتياح إلى ابن تومرت وأصحابه ، وأن يعتبروهم طلاب ملك يملعون في سبيله طاعة الخليفة ، ويخرجون عن الولاء له ، ومن ثم كان رأي

كان نصيبها من الدراسات النقدية الموضوعية قليل - في نظري - ولهذا خفي على كثير من المسلمين حقيقتها، لا سيما وقد سهاها مؤسسها بدعوة الموحدين فظنوا بها خيراً، ونسبوا إلى الصلاح والاستقامة، على الرغم من كونها على خلاف ذلك، كما يظهر من تراثها الفكري، وتاريخ مؤسسها وداعيتها الأول محمد بن تومرت، وهذا ما دفعني إلى دراسة هذه الدعوة، والتعرف على أسسها العقدية، واتجاهها الفكري لكشف ما بها من انحراف عن الخط الإسلامي الأصيل معتمداً في ذلك بعد الله - سبحانه وتعالى - على أقوال ابن تومرت وأفعاله، وما دونه لنا المؤرخون المعاصرون لتلك الدعوة، حيث أن تراث ابن تومرت الفكري ومؤلفاته، وكذلك ما دونه لنا المؤرخون المعاصرون لتلك الدعوة والذين هم من تلاميذ ابن تومرت من أمثال، البيهقي^(١)،

مؤرخيهم في شيخ الموحدين . . على أن الرأي مهما يختلف في شأن محمد بن تومرت فمما لا شك فيه أنه رجل من أهل الألبان والفطنة، كان له رأي في سياسة الدولة الإسلامية يستند إلى أساس من الدين . . .» (المراكشي: المعجب ص ٢٧٦ حاشية رقم ٢).

هكذا كانت نظرة هذين الكاتبين لدعوة ابن تومرت، وهي بلا شك نظرة سطحية، حيث فسرها تفسيراً سياسياً، مع أنها كانت تستند إلى أسس عقدية بحتة.

(١) البيهقي: هو أبو بكر بن علي الصنهاجي الملقب بالبيهقي، أحد تلاميذ ابن تومرت المقربين إليه، إذ كان يلازمه ملازمة تامة في إقامته وسفره، ولهذا تأثر تأثراً قوياً بدعوة ابن تومرت فأمن بكل ما نادى به، أو دعى إليه. وقد عاش البيهقي بعد وفاة ابن تومرت مدة طويلة، حيث توفي في آخر عهد الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بن علي - حوالي سنة ٥٥٥هـ - ولهذا فإنه حفظ لنا أخبار دعوة ابن تومرت منذ نشأتها حتى آخر عهد عبدالمؤمن بن علي حيث دون لنا ذلك في كتابين هما:

١ - أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين.

٢ - المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الأصحاب.

وهذان الكتابان يعدان في غاية الأهمية بالنسبة لدعوة ابن تومرت، وذلك لأن البيهقي كان معاصراً للأحداث، وشاهد عيان لما كتب. (انظر في تفصيلات ذلك البيهقي: أخبار المهدي بن تومرت تحقيق عبدالحميد حاجيات ص ٧ - ١١ من مقدمة المحقق).

وابن القطان،^(١) وابن صاحب الصلاة،^(٢) موجودة بين أيدينا، إضافة إلى أن الفترة التي ظهرت فيها تلك الدعوة حظيت بوجود العديد من المؤرخين الذين عاصروها، أو عاشوا قريبا منها، فكتبوا عنها، وهم شهود عيان لما كتبوا، أو قريبون من عصرها من أمثال: ابن الأبار (ت ٥٦٨هـ)، والمراكشي (ت ٧٤٧هـ)، وابن عذارى (ت أوائل ق ٨هـ). وغيرهم.

وسأنهج في دراستي لدعوة ابن تومرت، أن أقوم أولا بتتبع نشأة تلك الدعوة، وبيان المراحل والأطوار التي مرت بها، ثم أخلص بعد ذلك إلى بيان أهم الأسس الفكرية التي قامت عليها، ومدى قربها أو بعدها من الأسس الإسلامية الصحيحة، ولكن قبل أن نشرع بذلك قد يكون من المناسب أن أتحدث - بإيجاز - عن الاتجاهات الفكرية للدول الإسلامية التي ظهرت في بلاد المغرب الإسلامي - الشمال الأفريقي - منذ القرن الثاني، وحتى القرن الخامس الهجري، لنعرف مكان دعوة ابن تومرت بينها، والأرضية التي ظهرت فيها تلك الدعوة، وأصبح لها كيان سياسي يحميها.

(١) ابن القطان: هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك أحد تلاميذ ابن تومرت البارزين، ألف كتاب «نظم الجمان» ترتيب ما سلف من أخبار الزمان» حيث تحدث فيه عن بدء دعوة ابن تومرت، ونشأتها، وقيام دولة الموحدين، لكن هذا الكتاب فقد معظمه حيث لم يصل إلينا منه سوى السفر الثالث عشر والذي تحدث فيه عن أخبار ثلاثين سنة من سنة ٥٠٠هـ إلى ٥٣٣هـ، وهذا السفر يحوي معلومات مهمة عن ابن تومرت ودعوته.

ويؤخذ على ابن القطان مبالغته في مدح ابن تومرت، وتحامله على دولة المرابطين، حيث وصفهم بأنهم مجسمون وكفار. (انظر في تفصيلات ذلك كلام من: ابن القطان: نظم الجمان ص ٤٦ - ٤٧، وابن الأبار. التكملة لكتاب الصلة ج ٢ ص ٦٨٦ - ٦٨٧. ابن عبد الملك: الدليل والتكملة القسم الأول ص ٣١٢).

(٢) ابن صاحب الصلاة: هو عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الباجي المعروف بابن صاحب الصلاة، ولد سنة ٥٣٧هـ وتوفي (أواخر ق ٦هـ) وهو من رجال الدولة الموحدية المقيمين إلى زعماءها، وقد ألف كتابا عن تاريخ دولة الموحدين سماه «تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين...» ويتألف هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء، وقد فقد الجزآن الأول والثالث، ولم يصل إلينا منه سوى الجزء الثاني والذي حوى في ثناياه معلومات مهمة عن ابن تومرت، ونهجه في تربية أصحابه ولكن يؤخذ عليه المبالغة الشديدة في مدح الموحدين، وذم خصومهم المرابطين. (ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص ١٨٥، ٢٥٩، ٣٠٠، ٤٢٩، وكذلك مقدمة المحقق عبد الحمادي التازي ص ٣٥ - ٤٠).

المغرب قبل دعوة ابن تومرت :

بدأ ظهور تلك الكيانات السياسية في الشمال الأفريقي حينما ضعفت قبضة الخلافة الإسلامية بالشرق على تلك الديار، حيث قام هناك العديد من الدول الإسلامية التي أعلن بعضها استقلالها عنها، بينما بقى البعض الآخر منها مواليا لها ولاء صوريا، وكما تباينت ولاآت هذه الدول، فقد تباينت أيضا اتجاهاتها ومشاربها الفكرية، حيث انقسمت إلى أربعة اتجاهات رئيسة هي :-

١ - الاتجاه السني ويمثله دولتا الأغالبة والمرابطين والدولة الزيرية الصنهاجية في آخر عمرها :

وقد أسس دولة الأغالبة في المغرب الأدنى إبراهيم بن الأغلب ابن سالم التميمي الذي عينه الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) سنة ١٨٤هـ على ولاية افريقية، ثم ما لبث أن عرض على الرشيد الاستقلال الجزئي عن الخلافة العباسية، والاكثفاء بالتبعية الأسمية مقابل دفعه للخلافة العباسية مبلغا من المال في كل سنة، فوافق له الرشيد على هذا الطلب.^(١)

وقد توالى على عرش دولة الأغالبة عدد من الأمراء كان آخرهم زيادة الله بن عبدالله بن الأغلب (٢٩٠ - ٢٩٦هـ)، حيث حصل في فترة حكمه انقسام داخلي بين الأغالبة أنفسهم، مما ساعد الدولة العبيدية على القضاء على دولتهم سنة ٢٩٦هـ.^(٢)

وقد عمل الأغالبة - حين مدة حكمهم - على توطيد المذهب السني ونشره في البلاد التي خضعت لنفوذهم في بلاد المغرب، وصقلية، كما عملوا أيضا على نشر الحضارة الإسلامية في تلك الديار.^(٣)

أما دولة المرابطين (٤٥١ - ٥٤١هـ) فقد قامت في بادئ أمرها في جنوب بلاد

(١) ابن الأبار: الحلة السيرة ج ١ ص ٩٣ - ٩٥، ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٥٥.

(٢) انظر في تفصيلات هذه الأحداث السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير ج ٢ ص ٣٧٢ - ٤٠٦.

(٣) عمود اسماعيل: الاغلبة سياستهم الخارجية ص ٤٤.

المغرب الأقصى على يد الفقيه عبدالله بن ياسين^(١)، والأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، ثم يحيى بن عمر اللمتوني، وذلك في مستهل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري^(٢).

وقد قامت دولة المرابطين على أسس إسلامية سليمة، حيث نهجت نهج أهل السنة والجماعة، ولم تتأثر بأى نزعة دينية أخرى، وكان من أهم الأسس التي تبنتها «الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتزام أحكام الدين في فروض الزكاة والاعشار...»^(٣).

ولما تولى السلطان يوسف بن تاشفين (٤٥٣ - ٥٠٠ هـ) أمر المرابطين بسط سلطانه على المغرب الأقصى ثم الأندلس، حيث حملت دولة المرابطين لواء الجهاد في سبيل الله ضد النصارى بالأندلس^(٤) وفي مستهل القرن السادس الهجري بدأ الضعف ينتاب دولة المرابطين لا سيما بعد ظهور دعوة ابن تومرت في بلاد المغرب الأقصى، ثم ما لبث الموحدون أن قضوا عليها حينما دخلوا مدينة مراكش وقتلوا السلطان اسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين (٥٣٩ - ٥٤١ هـ) سنة ٥٤١ هـ^(٥) وبهذا تمكن الموحدون من أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين في المغرب والأندلس.

(١) يعتبر الفقيه عبدالله بن ياسين أول من سعى لتأسيس دولة المرابطين حيث تمكن من أن يجمع القبائل المتناحرة في وحدة دينية، كانت هي النواة الأولى لدولة المرابطين، وذلك حينما قدم ابن ياسين إلى بلاد جدالة بدعوة من يحيى بن ابراهيم الجدالي حيث لقي عبدالله بن ياسين ترحيبا من قبل أفراد قبيلة جدالة، لكن عبدالله أخذ ينكر على أفراد تلك القبيلة ما هم عليه من منكرات وبدع، فساءت العلاقة بينه وبينهم، مما دفعه إلى الارتحال عنهم إلى جزيرة منعزلة بالسنگال حيث صحبه بعض ابتاعه وعلى رأسهم يحيى بن ابراهيم ويحيى بن عمر.
(ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٣٤)، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٨٢ - ١٨٣، حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١١٣ - ١١٤.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٢٣، ابن الخطيب: أعمال الاعلام، القسم الثالث ص ٢٢٨.

(٣) حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٦٦.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٣٤ - ١٣٨ هـ، ابن الخطيب: أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٢٨ - ٢٦٦، السلاوي: الاستقصا ج ٢ ص ٣١.

(٥) المراكشي: المعجب ص ٢٤١، ابن عذارى: البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٨٩.

وبالإضافة إلى هاتين الدولتين السنتين، فإن الدولة الزيرية الصنهاجية قد نهجت النهج السني في آخر عمرها وذلك حينما أعلن المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٣هـ) انفصاله عن الدولة العبيدية في سنة ٤٤٠هـ، حيث خلع طاعتهم، وأخذ بمذهب أهل السنة كما لعن الرافضة وقتل من وجده في دياره منهم، ثم ما لبث أن دعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧هـ)^(١) وبهذا تحول اتجاه هذه الدولة الى الاتجاه السني، بعد أن كان تجاهها رافضيا.

٢ - الاتجاه الخارجي^(٢) ويمثله دولتا المذرايين (١٤٠ - ٣٤٧هـ) والرستميين (١٤٤ - ٢٩٦هـ):

وقد قامت دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ، على يد عيسى بن يزيد المكناسي، والذي كان يدين بالمذهب الصفري أحد الاتجاهات الرئيسة عند الخوارج،^(٣) حيث بسطت هذه الدولة سلطانها على منطقة سجلماسة جنوب بلاد المغرب الأقصى.^(٤)

وفي سنة ١٥٥هـ قتل أهل سجلماسة زعيمهم عيسى المكناسي لما أخذ أخذوها عليه، ثم ولوا بعده أبا القاسم سمعون بن واسول الملقب بمدرار

(١) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٥٩، ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٥٣٢.

(٢) الخوارج: هم إحدى الفرق الإسلامية كانت بداية ظهورهم بعد موقعة صفين حينما خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه - بعد حادثة التحكيم وتبرأوا منه. (الأشعري مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٩١).
قد انقسم الخوارج الى فرق كثيرة تزيد على عشرين فرقة ولهم آراء واعتقادات خالفوا بها جماعة المسلمين من أهمها رأيهم في الخلافة حيث أجازوا أن تكون الإمامة في غير قريش (الشهرستاني: الملل والنحل ج ٢ ص ٢٦).
وقد عرف في بلاد المغرب فرقان للخوارج هما: الخوارج الصفرية وهم أتباع زياد بن الأصفر القرشي، وفرقة الخوارج الإباضية نسبة إلى عبدالله بن إياض التميمي.

(انظر السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير ج ٢ ص ٥٣٨ - ٥٣٨، محمد أحمد عبدالمولى: القوى السنية في المغرب ج ١ ص ٩٢-٩٣).

(٣) ابن الخطيب: أعمال الاعلام القسم الثالث ص ١٤٦، ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٢١٥، ابن خلدون العبر ج ٦ ص ٢٧٦.

(٤) أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٦.

(١٥٥ - ١٦٧هـ)^(١)، وقد توالى على عرش الدولة أبنائه وأحفاده من بعده حيث تذبذبوا في ولاءهم المذهبي والسياسي، فمنهم من خطب للعباسيين، ومنهم من خطب للعبديين، فلما تولى محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار (٣٣٢ - ٣٤٧هـ) أعلن خروجه على المذهب الخارجي، وأخذ بالمذهب السني، لكن العبديين قضا عليه حينما هاجم جوهر الصقلي سجلماسة سنة ٣٤٧هـ وبوفاته انتهت دولة بني مدرار.^(٢)

أما دولة الرستميين، والتي كانت تنهج المذهب الإباضي، فقد أسسها في بلاد المغرب الأوسط عبدالرحمن بن رستم (١٤٤ - ١٧١هـ) سنة ١٤٤هـ، حيث اتخذ مدينة تاهرت حاضرة له.^(٣)

ولما توفي عبدالرحمن بن رستم سنة ١٧١هـ ترك الأمر شورى بين سبعة من رجال الدولة الرستمية، وقد اختلف هؤلاء السبعة، فبينما رأى بعضهم مبايعة ابنه عبدالوهاب، رأى آخرون^(٤) مبايعة مسعود الأندلسي أحد السبعة الذين ترك عبدالرحمن الأمر فيهم، لكن مسعود تنازل لعبدالوهاب، بعد أن كادت الفتن تعصف بالدولة.^(٥)

(١) ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٢٦٧، السلاوي: الاستقصا ج١ ص ١٢٥.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الاعلام القسم الثالث ص ١٤٨، السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير ج٢ ص ٥٨٩،

أحمد العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٦.

(٣) الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية ج٢ ص ٢ - ٣، السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير ج٢

٢ ص ٥٨٣، أحمد العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٦.

(٤) وقد تطور هذا الخلاف حتى تحول إلى انقسام مذهبي بين الاباضية أنفسهم، حيث نشأت فرقة الوهابية، وهم الذين يؤيدون عبدالوهاب بن رستم، والنكارية وهم الذين عارضوا عبدالوهاب وانكروا عليه بعض المآخذ التي أخذوها عليه. (انظر في تفصيلات ذلك: الباروني: الأزهار الرياضية ج٢ ص ١١١، السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير ج٢ ص ٥٥٢ - ٥٥٣).

(٥) الباروني: الأزهار الرياضية ج٢ ص ٩٩٠، أحمد العبادي: دراسات في تاريخ المغرب ص ٤٥ - ٤٦، السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير ج٢ ص ٥٥٠ - ٥٥١.

وقد استمرت هذه الدولة تحكم بلاد المغرب حتى قضى العبيديون على آخر أمرائها وهو اليقطان بن أبي اليقطان (٢٩٢-٢٩٦هـ) وذلك سنة ٢٩٦هـ^(١)، لكن سقوط هذه الدولة لا يعني سقوط المذهب الخارجي في بلاد المغرب فقد استمر وجود هذا المذهب هناك حتى بعد سقوط تلك الدولة^(٢).

٣ - الاتجاه الرافضي ويمثله دولة العبيدين :

وهذا الاتجاه كان آخر الاتجاهات الفكرية دخولا لبلاد المغرب إذ أن الدولة العبيدية التي نشرت هذا المذهب هناك، لم تقم في بلاد المغرب الأدنى إلا في سنة ٢٩٦هـ^(٣) والدولة العبيدية تدين بالمذهب الرافضي الاسماعيلي حيث تستند إلى أساسين هامين هما :

* العلم الالهي الموروث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عن طريق علي بن أبي طالب ثم أولاده من بعده .

* أما الأساس الثاني فهو الوصية أو النص على ولاية العهد، ولهذا فهم يرون كما يرى غيرهم من الرافضة أن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - يستحق الخلافة بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - لا عن طريق الكناية وحدها بل عن طريق النص أيضا^(٤).

وبالرغم من كون الدولة العبيدية قد تمكنت من القضاء على الأغلبية، والرسامين، والمدارئين، والادارسة فاستطاعت بذلك - إلى حد ما - أن تبسط سلطانها السياسي على معظم أقاليم بلاد المغرب، إلا أنها لم تتمكن من فرض مذهبها الديني على مكان تلك البلاد، وذلك لأن الناس لم يتقبلوا أفكار العبيديين لما فيها من

(١) أحمد العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٨، السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير ج٢ ص ٥٦٥.

(٢) أحمد العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٨.

(٣) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ص ٢٧٦.

(٤) أحمد العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٣ - ٥٤.

غلو وشطط لم يألفه سكان تلك الديار، بل انهم تطلّعون إلى خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس هي الخلافة الأموية بالأندلس،^(١) وهذا بلا شك من الأسباب القوية التي جعلت العبيديين يرحلون عن بلاد المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢هـ.^(٢)

٤ - الاتجاه الاعتزالي^(٣) ويمثله دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٧٢ - ٣١٣هـ):

أقام هذه الدولة ادريس بن عبدالله بن الحسن سنة ١٧٢هـ، وذلك حينما آوته قبيلة أوربة البربرية^(٤)، حيث امتدت حدود دولة الأدارسة من المحيط الأطلسي غربا إلى تلمسان ووهران شرقا.^(٥)

ولما توفي ادريس بن عبدالله سنة ١٧٧هـ بقي الأمر في سلالته حتى قضى على دولتهم العبيديون عام ٣١٣هـ^(٦)

وكان الأدارسة يطمحون^(٧) إلى توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم مستندين في

(١) المرجع السابع ص ٥٥.

(٢) الذهبي: العبر ج ٢ ص ٣٢٦، ابن عذارى: البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢١، أبو الفدا المختصر ج ٢ ص ١٠٩.

(٣) المعتزلة: هم فرقة ظهرت في القرن الأول الهجري في بلاد المشرق وسموا بهذا الاسم لاعتزال امامها وأصل بن عطاء مجلس الحسن البصري، وترى المعتزلة تأويل بعض الآيات القرآنية الدالة على اساء الله وصفاته خشية مشابهة الخالق بالمخلوق كما بنوا مذهبهم على خمسة أصول هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٤) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٢١٦ - ٢١٩، محمد أحمد عبدالمولى: القوى السنية ج ١ ص ٩٤ - ٩٥.

(٥) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٢٥، السلاوى: الاستقصا ج ١ ص ١٥٧.

(٦) أحمد العبادى: دراسات في تاريخ المغرب ص ٥٠.

(٧) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب ج ٢ ص ٤٨٦.

(٨) تبدو هذه المطامح من خلال الرسائل التي بعثها الأدارسة إلى بعض المسلمين، كما تبدوا أيضا من خلال الاتصالات التي أجروها مع أهل مصر والأغلبية. (انظر في تفصيلات ذلك: ابن الخطيب: أعمال الاعلام القسم الثالث ص ١٤ - ١٧، أحمد العبادى: دراسات في تاريخ المغرب ص ٥٠ - ٥١).

ذلك إلى أصلهم الشريف،^(١) وقرب نسبهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولكنهم لم يظهروا شيئا من التشيع كما يبدو هذا من خلال استقراء تاريخ تلك الدولة، ولهذا يبدو ليس مقبولا ما يميل إليه أحد الباحثين من أن دولة الأدارسة قد أخذت بالمذهب الشيعي^(٢) الزيدى،^(٣) ولعل السبب في هذا القول هو تبني الرافضة لأفكار المعتزلة في القرون المتأخرة فيما لا يتعلق بالامامة .

أما تبني دولة الأدارسة للمذهب الاعتزالي فقد ذكر عدد من الكتاب والمؤرخين^(٤) أن هذا المذهب قد انتشر في بلاد المغرب الأقصى، وأن قبيلة أوربة البربرية والتي ساعدت ادريس في إقامة دولته كانت معتزلية، ولهذا فقد أقر ادريس الثاني لهم نشر المذهب في دولته .

وهكذا تبنت دولة الأدارسة المذهب الاعتزالي، ولكن الذى يبدو هو أن زعماء هذه الدولة لا سيما القدماء منهم وجدوا أن هذا المذهب قد انتشر في بلاد المغرب الأقصى خاصة بين أفراد قبيلة أوربة التي ساعدت ادريس الأول في إقامة دولته، ولهذا لم يجدوا من إظهار موافقتهم الظاهرية لهذا الفكر ليبقى في دولتهم بعد قيامها مراعاة منهم لزعماء قبيلة أوربة الذين تبناه وعملوا على نشره، لكن الأدارسة لم يظهروا حماسا لنشره وجعله مذهبا رسميا لدولتهم .

كان هذا عرضا - سريعا - للاتجاهات الفكرية الرئيسة التي وجدت في بلاد المغرب حتى ظهور دعوة ابن تومرت، وهذه الاتجاهات كان لها ثقل مذهبي وسياسي، حيث أن كل واحد منها قد حتمه دول أو دولة من القوى السياسية التي نشأت في تلك الديار، وهذا بلاشك هو الذى أكسب تلك الاتجاهات هيبة ومكانة عند الناس، مما ساعد

(١) أحمد العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٥١ .

(٢) سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٤٢٣ .

(٣) ويقابل هذا القول ما ذكره القردبل من أن دولة الأدارسة كانت على المذهب السني وانهم عملوا على نشره في بلاد

المغرب (الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ترجمة عبدالرحمن بدوى ص ٨٨) .

(٤) من هؤلاء الكتاب والمؤرخين ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان ص ٨٤، الشهرستاني الملل والنحل ج ١

ص ٥٧، محمد أحمد عبدالمولى: القوى السنية في المغرب ج ١ ص ٩٥ - ٩٦ .

على شيوعها وانتشارها في مناطق جديدة من بلاد المغرب .
وبالإضافة إلى هذه الاتجاهات الفكرية الأربعة الرئيسة فقد كان هناك اتجاه خامس
هو اتجاه دولة الموحدين التي قامت على أسس قوية من دعوة ابن تومرت الذي كان
يجمع بين هذه الاتجاهات وغيرها من الاتجاهات الفكرية الأخرى، اذ أن محمد بن
تومرت مؤسس هذه الدولة استقى من جميع هذه المشارب بل زاد عليها ما يرى أنه
يخدم ميوله ويحقق أهدافه، ولهذا جاءت الأسس الفكرية لدعوته ثم لدولة الموحدين
خليطاً مضطرباً ونسيجاً فكرياً متبايناً - كما سنرى - .

دعوة ابن تومرت في مراحلها الأولى :

ولد محمد بن عبدالله بن تومرت الصنهاجي ، في الثلث الأخير من القرن الخامس
الهجري ببلاد المغرب الأقصى ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد سنة مولده .^(١)

حفظ ابن تومرت القرآن الكريم ، ودرس بعض العلوم الإسلامية في بلاد المغرب
في صباه، ثم ارتحل منها سنة ٥٠١ هـ حيث زار قرطبة ودرس مؤلفات ابن حزم
الظاهري .^(٢)

ثم ارتحل بعد ذلك إلى المشرق ، حيث تنقل بين عواصمه الثلاث (بغداد) و (مكة)
و (القاهرة) ،^(٣) وقد أفاد من هذه الرحلة علماً عزيزاً لا سيما في العلوم العقلية
واللسانية ،^(٤) حيث أعانه على ذلك ذكاؤه المفرط، ومثابرته وهمة العالية .^(٥)

(١) انظر في تفصيلات هذا الخلاف كلا من ابن القطان : نظم الجمان ص ٧٤ ، المراكشي : المعجب ص ٢٤٥ ،
الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٤ ، ابن الخطيب : رقم الحلل ص ٥٧ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٧٨ ،
ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٥٣ ، ابن السراج : الحلل السندسية ج ١ ص ٩٨٥ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٧٩ ، الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٤ ، مراجع الغناي قيام دولة الموحدين ص ١٦٩ ،
العبادي : المجمع في تاريخ الأندلس ص ١٦٧ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ١٧٩ ، الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٤ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٧٠ .

(٥) عبدالله علام : الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن ص ٤٦ ، سعد زغلول عبد الحميد : محمد بن تومرت ص ١٣ .

وفى طريق عودته إلى بلاده من بلاد المشرق مرّ بمكة، وفيها بدأ دعوته حيث أخذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اذا يذكر ابن العماد الحنبلي أنه «بدأ أولا الانكار بمكة فأذوه فقدم مصر. .»^(١).

هكذا كانت بداية ظهور دعوة ابن تومرت، أما الوضع السياسي لبلدان العالم الإسلامي في تلك الفترة - مطلع القرن السادس الهجري - فقد كان وضعاً مضطرباً فالخلافة العباسية بالمشرق قد دبّ فيها الضعف، كما أن دولة العبيديين بمصر قد كرهها الناس بسبب غلو حكامها وتشططهم العقدي، إلى جانب أعمالهم العدائية ضد الإسلام والمسلمين.

أما بلاد المغرب والأندلس فكانت في تلك الفترة تخضع لحكم دولة المرابطين، وكانت قبضتها قوية، واتجاهها اتجاهاً سني، حيث كان يتولى أمرها آنذاك السلطان علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ - ٥٣٧هـ) وكان ورعاً مجاهداً مقبولاً عند الناس، وهذا ما جعل الطريق صعباً أمام ابن تومرت الذي بدأ ظهوره في بلاد المرابطين، ولهذا فإن ابن تومرت ولكي يضمن لدعوته النجاح والانتشار سلك الخطوات التالية :-

١ - اظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقمصه لأساليب وشخصيات المصلحين، فقد انتحل ابن تومرت صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ بهذا النهج منذ وقت مبكر وذلك حينما كان بمكة بعد عودته من العراق حيث استغل تجمع المسلمين فيها، فأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ناله شيء من الأذى بسبب ذلك،^(٢) ومن مكة توجه إلى مصر وفيها استأنف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالعراق في ذلك حتى طرده العبيديون منها حيث خرج إلى بلاد المغرب.^(٣)

ويبدو أن ابن تومرت كان يهدف من وراء اظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١) شذرات الذهب ج ٤ ص ٧٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٦.

(٣) المصدر السابق ص ٤٦.

إلى تحقيق غرضين: الأول منها هو لفت انظار الناس إليه في البلاد التي مر بها حتى يعد من المصلحين، أما الثاني فهو تكوين بعض الخلايا السرية في تلك البلاد من الأفراد الذين يعجبون بمنهجه، وذلك ليكونوا دعاة إلى أفكاره ومبادئه، وقد نجح في ذلكم حيث يذكر البيذق أنه كان لابن تومرت بمصر واحد وخمسون رجلا من أهلها «وكانوا له مثل أعضائه وجسده سامعين لقوله مجيبين لأمره مؤمنين به. ولما تبين حالهم بذلك اختار لهم الإقامة هناك...»^(١)

ولما وصل إلى بلاد المغرب نزل بمدينة المهدية سنة ٥٠٥هـ حيث كانت تخضع للأمير يحيى بن تميم بن المعز الصنهاجي^(٢) (٥٠١ - ٥٠٩هـ)، وفيها واصل نشاطه في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ودعوة الناس إلى الدخول في دعوته، حيث يذكر ابن خلدون أنه لما نزل بطرابلس أظهر ما يدعو إليه صراحة، كما أنكر على علماء المغرب عدم أخذهم بما يدعو إليه وينادي به.^(٣)

وفي بلاد المغرب انتقل ابن تومرت من الجانب التنظيري في دعوته، إلى الجانب العملي حيث جد في تكوين قاعدة لدعوته، وكانت وسيلته المعلنة في ذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حلقات للتدريس ينشر من خلالها أفكاره ليستقطب بعد ذلك من يتقبلها من تلاميذه.^(٤)

ويبدو أن جراءة ابن تومرت في الكلام، وتظاهره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب كونه يتوجه في دعوته إلى التجمعات الشعبية العامة كانت من العوامل القوية لنجاح دعوته في هذه المرحلة،^(٥) حيث يذكر تلميذه البيذق، أنه ما أن حل

(١) أخبار المهدى بن تومرت (نشر بروفنسال) ص ٣٢.

(٢) يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي أحد أمراء الدولة الصنهاجية تولى الأمر بعد وفاة أبيه سنة ٥٠١هـ وفي عهده قدم ابن تومرت إلى بلاد المغرب الأدنى في سنة ٥٠٥هـ. (ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٣، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٥٨، ابن أبي دينار: المؤنس ص ٨٢ - ٨٥، الباجي: الخلاصة النقية ص ٤٩ - ٥٠).

(٣) العبر ج ٦ ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

(٤) البيذق: أخبار المهدى بن تومرت ص ٥١، المراكشي: المعجب ص ٢٧٤، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٤٦٧.

(٥) المراكشي: المعجب ص ١٧٩ - ١٨٠، عبدالله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٨٥.

ببلاد المغرب الأدنى حتى كثر حوله المؤيدون والأنصار، فاختار بعضهم ممن يتوسم فيهم القبول المطلق لدعوته ومخايل الذكاء والنجابة، وتوجه بهم إلى بلاد المغرب الأقصى^(١).

كانت هذه هي الخطوة الأولى التي نهجها ابن تومرت لنشر دعوته، ومن خلال تتبعنا لهذه الخطوة ندرك أن ابن تومرت قد نهج عدد من السبل حتى يظهر دعوته للناس، ويجمع حوله المؤيدين والأنصار ومن هذه السبل مايلي:-
أ - أنه تدرج في اظهار دعوته، كما البسها الصبغة الاصلاحية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ب - أنه خاطب بها الجهال والسذج من الناس الذين لا يدركون حقيقة ما فيها من انحراف عن الخط الإسلامي الصحيح، حيث توجه بها إلى قوم صيام عن جميع العلوم كما يقول المراكشي^(٢).

ج - أنه كان يبالح في انكار المنكر على الحكام الذي يمر بديارهم كما فعل مع العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد صاحب بجاية^(٣)، ومع يوسف بن تاشفين زعيم دولة المرابطين^(٤) وذلك لكي يكسب بهذه الجراة مكانة عند الناس.

د - مما يلحظ على ابن تومرت أثناء هذه المرحلة من دعوته أنه بالرغم من تظاهره بالتقى والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه كان لا يتورع عن الكذب حتى أثناء قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يذكر البيهقي أنه كان إذا خشي بطشا وهو يأمر بالمعروف خلط في كلامه حتى ينسب إلى الجنون^(٥)، وهذا النهج منهج كثير من الفرق الباطنية حيث يلجأون إلى الكذب وإلى العبارات الموهمة حتى لا تتكشف حقائقهم.

(١) أخبار المهدي بن تومرت، (تحقيق عبد الحميد حاجيات) ص ٣٦ و ٤٢.

(٢) المعجب ص ٢٧٠.

(٣) ابن القطان: نظم الجمان ص ٢٢، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٤٦٧.

(٤) البيهقي: أخبار المهدي بن تومرت ص ٥٦-٥٧، الزركشي: تاريخ الدولتين ص ٥.

(٥) أخبار المهدي بن تومرت ص ٢٢.

٢ - وكانت الخطوة الثانية التي نهجها ابن تومرت في بداية دعوته ، أنه جدّ في تكوين قاعدة قوية مؤمنة بالمبادئ التي يدعو اليها ، حيث أعد أفرادها اعدادا خاصا ، وذلك لكي يكونوا قاعدة شعبية لدعوته ثم لدولته ، وقد بدأ بهذا النهج منذ مستهل دعوته حيث تمكن من تكوين خلية في بلاد مصر قوامها واحد وخمسون رجلا ،^(١) ولما انتقل إلى المغرب زاد من جهوده في هذا الميدان حيث انشأ حلقات للتدريس كان يبت أفكاره من خلالها ولكي يؤصل تلك الأفكار في أذهان أتباعه ألف لهم كتابا في العقيدة يتضمن الخطوط العريضة لأصول دعوته حيث طالبهم بحفظه .^(٢)

وإلى جانب اهتمامه بتكوين القاعدة الشعبية ، فانه كان يحتّم بشوكة بعض القبائل البربرية حتى يضمن لنفسه الأمان ، ولدعوته الانتشار في ظل حماية تلك القبائل ، فهو حينما وصل إلى بجاية بعد عودته من مصر حشي من بطش الحماديين فلجأ إلى قبيلة بنورياكل - إحدى قبائل صنهاجة - فأووه واجاروه ومنعوا الحماديين من النيل منه ،^(٣) ولما انتقل إلى بلاد المغرب الأقصى وخاف من سطوة المرابطين ذهب إلى بلاد هرغة حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة فاحتّم بشوكتيهما من المرابطين ، كما توفر له عندهم الجو المناسب لمواصلة الدعوة .^(٤)

هكذا تمكن ابن تومرت من تكوين قاعدة شعبية قوية لدعوته ، وقد كانت هذه القاعدة في غاية التلاحم والتفاهم مع القيادة مما أدى إلى إعجاب الناس بها ومن ثم تقبلهم لمبادئها .

٣ - ومن الخطوات التي سلكها ابن تومرت تحديد موقفه من دولة المرابطين والتي كانت تبسط سلطانها السياسي على بلاد المغرب ، وقد جاء عمله بهذه الخطوة

(١) المصدر السابق ص ٣٠ - ٣١ ، عبد الحميد درويش : الفلسفة الإلهية عند ابن تومرت ص ١٩ .

(٢) ابن القطان نظم الجمان ص ٤٦ ، ابن أبي زرع : الانيس المطرب ص ١٧٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٦٧ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٦٩ ، ابن قنفذ : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ص ١٠١ ، سعد زغلول

عبد الحميد : محمد بن تومرت ص ٢١ .

متأخرا بعض الشيء اذا ما قورن بالخطوتين السابقتين ، وذلك لأن ابن تومرت لم يرد أن يحدد موقفه من دولة المرابطين ، إلا بعد أن يشيع بين الناس ذكره ، ويكون قاعدة شعبية يتكئ عليها في ساعات الخطر ، فلما اطمأن إلى وجود هذه القاعدة ، وإلى أنه لم يصبح نكرة عند كثير من الناس ، أعلن رأيه في دولة المرابطين ، متخذاً الأمر بالمعروف ستارا ووسيلة لتحقيق غايته وطريقا لاطهار مفاسد دولة المرابطين ،^(١) فبدأ بالطعن في عقيدة المرابطين ووصفهم بالتجسيم^(٢) والكفر والنفاق^(٣) كما قال لأتباعه بأن غزوهم ومقاومتهم أوجب^(٤) من حرب النصارى والمجوس .^(٥)

هكذا أعلن ابن تومرت رأيه بدولة المرابطين حيث استغل تنقله بين مدن وأقاليم المغرب الأقصى لبيان هذا الرأي ، وبهذا أصبح خطره يهدد كيان دولة المرابطين ، حيثئذ استدعاه السلطان علي بن يوسف ابن تاشفين وسأله : ماهذا الذى بلغنا عنك؟ فأجابه ابن تومرت في قوة بأنه يطلب الآخرة ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وأن هذه مسؤولية الحاكم قبل غيره ، ويذكر بعض المؤرخين أن السلطان علي بن يوسف حين سمع ذلك أطرق برأسه إلى الأرض مليا ، ثم أمر الفقهاء بمناظرته واختباره ،^(٦) فلما ناظروه تبين لهم حقيقة ما يحمله ابن تومرت من أراء ومعتقدات تخالف طريقة أهل السنة والجماعة ، فأوصوا السلطان بسجنه سدا للذريعة . ودرءا للفتنة لكن أحد المرابطين شفع فيه فأمر السلطان باخراجه من مراكز ولم يسجنه .^(٧)

(١) سلامة الهرفي : دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ص ٩٩ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤٧ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٧١ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤٧ .

(٤) مما جاء في إحدى رسائل ابن تومرت التي وجهها إلى الموحدين قبيل لقاءهم بالمرابطين بإحدى المعارك «واعلموا وفقكم الله أن جهادهم فرض على الأعيان على كل من فيه طاقة على القتال ، واجتهدوا في جهاد الكفرة المثلثين فجهادهم أعظم من جهاد الروم وسائر الكفرة بأضعاف كثيرة لأنهم جسموا الخالق سبحانه وانكروا التوحيد وعاندوا الحق . . . » (البليق : أخبار المهدي بن تومرت ، تحقيق بروفنسال ص ٩) .

(٥) البليق : أخبار المهدي بن تومرت ، تحقيق ليفي بروفنسال ص ٩ ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٧٥ .

(٦) الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٦ ، الذهبي : العبر ج ٤ ص ٥٩ .

(٧) المراكشي : المعجب ص ١٨٧ ، عبدالله علام : الدعوة الموحدية ص ١٠٧-١٠٨ .

أدرك ابن تومرت بعد ذلك المخاطر التي تهدده من قبل المرابطين، لا سيما أن دعوته قد وصلت إلى مرحلة الظهور والجهر بالأهداف، فقرر الانتقال إلى بلاد السوس مسقط رأسه حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة، سنة ٥١٥هـ، وذلك لضمان الحماية اللازمة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين.^(١)

وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث التف حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختر منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته حيث شرع في تدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة، وكان يؤصل في نفوس أتباعه موقفه من دولة المرابطين من خلال تلك الحلقات والدروس،^(٢) وبهذا استطاع أن يوجد حاجزاً نفسياً قوياً بين كثير من تلاميذه ودولة المرابطين، وهذا بلا شك مما ساعد على تهيئة كثير من الموحدين للتصدي للمرابطين، ومقاومتهم وهو ما كان يهدف إليه ابن تومرت.

ولما شعر ابن تومرت بقبول دعوته في أوساط الهرغيين، وأى توسيع اطاره المكاني، فاختر جماعة من تلاميذه حيث أرسلهم إلى بعض القبائل القريبة من بلاد السوس لاستمالتهم ودعوتهم إلى الخروج على طاعة المرابطين، وقد تمكن بواسطة هذا الأسلوب من استشارة كثير من القبائل البربرية ضد الدولة المرابطية.^(٣)

كانت هذه هي خطوات ابن تومرت في تمهيد الطريق، وجهوده في تأسيس قواعد البناء قبل أن يدعو الناس إلى مبايعته بالامامة، ويعلن قيام الدولة الموحدية، وبالإضافة إلى هذه الخطوات، فقد أعانه على اجتذاب المؤيدين والأنصار ما سار عليه من خطوات محكمة، إضافة إلى ما كان يتسم به كثير من أفراد القبائل البربرية

(١) ابن خلدون: العبر ج٦ ص ٣٢٨، ابن قنفذ: مبادئ الدولة الحفصية ص ١٠٠، سعد زغلول عبد الحميد:

محمد بن تومرت ص ٢١.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٧٧.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٧٦، المراكشي: المعجب ص ٢٥٤.

من سذاجة وجهالة، فضلا عما كان يتمتع به ابن تومرت من ذكاء، وعلم وقدرة على التنظيم^(١)، والتأثير^(٢).

اعلان ابن تومرت قيام دولته :

لما اطمأن ابن تومرت إلى قاعدته وحسن ولائها له، دعا الناس إلى مبايعته حيث يذكر ابن القطان أنه قام خطيبا فيهم ومما جاء في خطبته: «... الحمد لله الفعال لما يريد، القاضي بما يشاء، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدى الذى يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت جورا يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وازيل العدل بالجور مكانه بالمغرب الأقصى واسمه اسم للنبي ونسبه نسب النبي». ^(٣)

(١) من صور التنظيم التى كان يعمل بها ابن تومرت انه صنف اتباعه بعد مبايعته بالامامة إلى طبقات حسب اسبقيتهم إلى بيعته ودخولهم فى طاعته، وقد توخى أن لا يصل إلى هذا التصنيف إلا من كان مخلصا لدعوته، ملما بالافكار التى نادى بها ودعا إليها، وهذا التصنيف يشتمل على أربع عشرة طبقة هي: (١) الجماعة أو العشرة وهؤلاء أقرب الناس إليه. (٢) أهل الخمسين وهؤلاء يكونون دائرة أوسع من الدائرة السابقة. (٣) أهل السبعين وهؤلاء دون أهل الخمسين مرتبة ونفوذًا.

وهذه الطبقات الثلاث تشارك ابن تومرت فى ابداء الرأى، وإدارة شؤون الدولة حيث يذكر صاحب كتاب الحلل الموشية أن ابن تومرت «... يعقد الأمور العظام مع أصحابه العشرة لا يحضر غيرهم فإذا جاء أمر أهون أحضر أهل الخمسين فإذا جاء ذلك أحضر معهم السبعين...» الحلل الموشية ص ٨٨. ويلى هذه الطبقات الثلاث احدى عشرة طبقة هي: (١) الطلبة. (٢) صغار الطلبة. (٣) أهل الدار: وهم أسرة ابن تومرت ومن يقوم بخدمته. (٤) أهل هرغة: وهم زعماء قبيلة ابن تومرت. (٥) أهل تينملل، وجدميوه، وجنفيسه، وهنتاته وهي كبرى القبائل البربرية التى استجابت لدعوته ويكونون أربع طبقات. (٩) أهل القبائل: وهم بعض زعماء القبائل الموالية لابن تومرت. (١٠) الجند. (١١) الغزاة.

ويذكر ابن القطان: «ان لكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها إلى غيرها لاني السفر ولا في الحضر وأخذهم فى تارك امتثال أمر من يسمح امره بالقتل وبايعوه على هذا».

انظر فى تفصيلات هذا التصنيف: ابن القطان: نظم الجمان ص ٢٧ - ٢٩، المراكشي: المعجب ص ٤٢٥، مؤلف مجهول: الحلل الموشية ص ٨٧ - ٨٨، ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) ابن خلدون: العبرج ص ٦٢٨، سعد زغلول عبد الحميد: محمد بن تومرت ص ٢٧.

(٣) نظم الجمان ص ٧٥.

وبعد هذه الخطبة قام الناس فبايعوه بالامامة وكان ذلك في الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٥١٥ هـ.^(١)

وهكذا نرى كيف أن ابن تومرت لم يجرؤ على اعلان انه المهدي إلا بعد أن وثق من ولاء عامة الناس له، وفي هذا يقول ابن خلدون: «ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان لقبه قبلها الامام».^(٢)

وقد جاءت مبايعة ابن تومرت اماما للموحدين قرب مراکش، دون تصد ومقاومة من قبل المرابطين أصحاب السلطة الشرعية هناك، بل ودون احساسهم بالخطر الداهم قرب عاصمتهم شاهدا على ضعف دولة المرابطين وقتذاك وعلى النجاح الكبير الذي حققه ابن تومرت لدعوته الناشئة آنذاك.

أمضى ابن تومرت السنوات الثلاث التالية لسنة مبايعته في جهد متواصل، وعمل دأب لدعوته حيث خاطب القبائل القريبة منه يدعوهم إلى الدخول في طاعته ونبذ طاعة المرابطين، فاستجابت له بعض القبائل^(٣) ولكي يوفر مزيدا من الأمن لدولته ودعوته غادر جبل ايجليز في بلاد السوس سنة ٥١٨ هـ إلى قرية تينملل^(٤) ببلاد هرغة وقد جاء اختياره لها بسبب حصانتها وموقعها المهم.^(٥)

ويبدو أيضا أن ابن تومرت أراد من ذهابه إلى تينملل الابتعاد عن زعماء قبيلته ليتوقي مغبة تدخلهم في شؤون دولته الناشئة لا سيما وهو في مرحلة وضع الأسس الأولى لها.

أصبحت تينملل بعد وصول ابن تومرت إليها عاصمة لدولة الموحدين الناشئة

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٧٦، ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحنفية ص ١٠٠.

(٢) العبر ج ٦ ص ٢٢٨.

(٣) المراكشي: المعجب ص ٢٥٤، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٧٦.

(٤) تينملل: قرية صغيرة في بلاد السوس يسكنها البربر تقع في رأس جبل درن ولا يمكن الوصول إليها إلا من طريق واحد لا يتسع لغير فارس واحد، وهي في غاية الحصانة حيث يسد خللها أقل عصابة من الناس. (ياقوت: معجم

البلدان ج ٢ ص ٦٩، ابن القطان: نظم الجيان ص ٧٥).

(٥) ابن القطان: نظم الجيان ص ٧٥.

حيث قسم أراضيها وديارها على أصحابه الموحدين ليسكنوا فيها، كما بنى مسجداً وداراً له بينهم،^(١) وفيها وضعت أسس دولة الموحدين ومنها انطلقت جيوشهم، كما وزع ابن تومرت مسؤوليات الدولة ووظائفها على أصحابها الموحدين حسب ولائهم لطاعته.^(٢)

هكذا أصبحت بلاد السوس بالمغرب الأقصى تغلي حماساً وولاءاً لدعوة ابن تومرت لكنه توفي قبل أن يحكم البناء ويوسع إطار دعوته، حيث وافاه الأجل في شهر رمضان عام ٥٢٤هـ، وكانت مدة حكمه حوالي تسع سنوات،^(٣) وقد ترك حرباً مشتتة بين أتباعه والمرابطين، وكل من خالف دعوة الموحدين في أرض المغرب الأقصى، كما خلف أتباعاً مؤمنين بدعوته محاربين لأجلها.

الأسس الفكرية لدعوة ابن تومرت :

بعد هذا العرض التاريخي - السريع - الذي تحدثنا فيه عن نشأة دعوة ابن تومرت منذ أن كانت فكرة، وحتى ظهرت إلى حيز الوجود، وأصبح لها كيان سياسي يحميها، ويدعو الناس إليها، نتحدث - بعون الله بشيء من التفصيل - عن الأسس الفكرية التي قامت عليها هذه الدعوة لتبين هل كانت تلك الأسس إسلامية خالصة تسير حسب المنهج الإسلامي الصحيح؟ أم كانت خلاف ذلك؟ وذلك من خلال استقراء تاريخ هذه الدعوة، وما خلفه لنا ابن تومرت من تراث فكري ومن أهم الأسس التي قامت عليها دعوة ابن تومرت مايلي:-

١ - ادعى ابن تومرت النسب القرشي، وأنه من سلالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد أقر بعض المؤرخين هذا الادعاء،^(٤) كما قال به بعض الكتاب

(١) ابن القطان: نظم الجمان ص ٧٥، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٢٨.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) البيهقي: اخبار المهدي بن تومرت ص ٤٣، ابن قنفذ: الوافي بالوفيات ص ٢٧٣.

(٤) من هؤلاء المؤرخين: أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيهقي في كتابه المقتبس من كتاب الانساب ص ١٢، ابن

القطان: نظم الجمان ص ٣٤، الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ١٢، ابن خلدون: العبر ج ٦

ص ٢٢٦.

المحدثين،^(١) لكن طائفة أخرى من المؤرخين انكرت هذا الادعاء وقالت ان ابن تومرت دعي فيه فهو من هرغة احدى قبائل المصامدة البربرية حيث عرف بمحمد بن تومرت الهرغي،^(٢) كما قال بهذا الرأي من الكتاب المحدثين محمد عبدالله عنان - رحمه الله - إذ يرى أن هذا الادعاء ما هو إلا نحلة باطلة، وثوبا مستعارا قصد من ورائها ابن تومرت أن يدعم بها صفة المهدي الذي انتحلها أيضا شعارا لامامته ورياسته،^(٣) كما يرى حسن محمود هذا الرأي حيث ذكر أن ادعاء ابن تومرت للنسب العربي ما هو إلا وسيلة لكسب الانصار لدعوته الناشئة.^(٤)

والمتبع لتاريخ ابن تومرت يدرك أنه لم يظهر ادعاءه النسب القرشي دفعة واحدة بل إنه تدرج في هذا الأمر، حتى يضمن قبل الناس له، فبعد أن اطمأن إلى قبول دعوته، وإلى تمكنه من أتباعه، أخذ يشوقهم إلى المهدي ونسبه، ثم لما قبلوا هذا الأمر، ادعى ذلك الأمر لنفسه. حيث قال لهم: «أنا محمد بن عبدالله . . . ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . . .»^(٥).

هكذا ادعى ابن تومرت النسب القرشي، وقد تبين لنا من خلال العرض السابق اختلاف وجهات نظر الكتاب والمؤرخين حول ذلك الادعاء، والذي يبدو أن هذا الادعاء ليس بصحيح وإنما أراد به ابن تومرت أن يصل إلى بعض المطامح والمطامع حينها يضيف حول نفسه هالة تَجَر الناس إليه، وتدعوهم إلى الاعجاب به، وذلك عندما تتأصل محبته في نفوس الناس والذي يقود إلى هذا الاستنتاج مايلي:

(١) أنه لم يشتهر بين المؤرخين لا سيما علماء الانساب منهم أن ابن تومرت يعود إلى

(١) من هؤلاء الدكتور عبد الحميد العبادي: المجلد في تاريخ الأندلس ص ١٨٢، عبدالله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٥٤، عبد المجيد النجار: المهدي بن تومرت ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) ممن قال بهذا ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١،٢، ابن عذارى: البيان المغرب ج٢ ص ٦٨، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٢ ص ٧٠.

(٣) عصر المرابطين والموحدين ص ١٦٠.

(٤) قيام دولة المرابطين ص ١٧٧.

(٥) المراكشي: المعجب ص ٢٥٥.

أصل عربي، وانما معظم الذين قالوا بهذا هم من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحي من سلاطينها وامرائها، أو بتأثير دعوة ابن تومرت.

(٢) ان هذا الادعاء كان مألوفاً عند أصحاب المطامح الدينية والسياسية في بلاد المغرب - آنذاك - حيث انتهجه العبيديون^(١) قبله، والمرينيون^(٢) والحفصيون^(٣) بعده، حتى يؤصلوا محبتهم في نفوس الناس الذين يحكمونهم.

(٣) ويضاف إلى ما سبق أن انتساب ابن تومرت إلى الأصل العربي لم يكن معروفاً عند اتباعه إلا بعد أن ادعى ذلك الحاجة في نفسه - كما أسلفنا -.

٢ - ومن الاتجاهات الفكرية لدعوة ابن تومرت أنه ادعى العصمة حيث قال عن نفسه: بأنه هو المهدي المعصوم، ثم أشاع ذلك بين اتباعه حتى أصبحوا يطلقون عليه لفظ العصمة دون حرج أو تردد،^(٤) وقد أكد هذا الأمر في مؤلفاته التي انتشرت بينهم إذ جاء فيها: «ويجب أن يكون الامام معصوماً من الباطل ليهدم الباطل، كما يجب أن يكون معصوماً من الضلال... ولا بد أن يكون الامام معصوماً من هذه الفتنة وأن يكون معصوماً من الجور لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبت. . . وأن يكون معصوماً من الكذب لأن الكذب لا يهدم الكذب بل يثبته، وأن يكون معصوماً من الباطل... ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولي الأمر وهو الامام المعصوم من الباطل والظلم»^(٥).

كما قال بعصمة الامام من الزلل والفساد حيث قال: «لا يقوم بحقوق الله إلا العدل الرضا المعصوم من الفساد»^(٦).

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ١٢١، ابراهيم شعوط: أباطيل يجب أن تحمي من التاريخ ص ٣٤٨.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ٢٧٨ - ٢٠١، الذخيرة ص ١٤، ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن ص ١٠٩ - ١١٠.

(٣) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٧٥، الزركشي: تاريخ الدولتين ص ٢٤.

(٤) انظر في تفصيلات ذلك: البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ابن القطان نظم الجمان حيث وردت كلمة المعصوم عشرات المرات، كما ورد فصل بعنوان: «عصمته رضى الله عنه».

(٥) أعز ما يطلب ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٦) المصدر السابق ص ٢٤٦.

وهكذا نرى كيف أن القول بالعصمة للأئمة أصبحت اتجاهها قويا من اتجاهات دعوة ابن تومرت الفكرية، وقد تمكن من تأصيل هذا الأمر عند اتباعه حتى اطلقوا عليه لقب المعصوم، وأصبح هذا اللقب من أشهر القاب ابن تومرت لدرجة انهم كانوا يطلقونه عليه دون ذكر لاسمه بسبب اشتغاره به.^(١)

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في اظهار هذا الأمر في بادئ أمره، فبدأ أولا بالتلميح لهم، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة،^(٢) ولعل الذي دفعه إلى ذلك هو شعوره بأهمية النقلة التي يريد أن يكون عليها اتباعه، ولهذا بدأهم بالتدرج كما فعل معهم حينما قال بنسبه العربي.

والعصمة عند أهل السنة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله من شرع ولم يقولوا بها لسواهم حتى لكبار الصحابة الذين خصهم الله بالفضل، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي وغيرهم.^(٣)

ولكن ابن تومرت بهذا النهج يوافق الرافضة الاثنى عشرية الذين قالوا بالعصمة لائمتهم حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر والصغائر والخطأ والنسيان.^(٤) كما قالوا: ان الامام كالنبي يجب أن يكون معصوما من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمدا وسهوا، كما يجب أن يكون معصوما من السهو والخطأ والنسيان». ^(٥) وهكذا نرى كيف غالى ابن تومرت في

القول بالعصمة لنفسه، وهذا بلاشك انحراف عقدي خطير «لأن من جعل بعد

(١) انظر في تفصيل هذا البيذق: أخبار المهدي بن تومرت، حيث عقد أكثر من عشرة فصول في هذا الكتاب بعنوان دخول المعصوم أو خروج المعصوم... الخ. وكذلك ابن القطان في كتابه نظم الجحان.

(٢) المراكشي: المعجب ص ٢٧٥.

(٣) الصابوني: النبوة والأنبياء ص ٥٥ - ٥٦.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٩٥، ابن تيمية: منهاج السنة ج ٣ ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٥) محمد رضا المظفر: عقائد الامامية ص ٧٢.

الرسول معصوما يجب الايمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة وأن لم يعطه لفظها»^(١).

بل انه لم يكتف بهذا الأمر حيث كان يأمر بقتل كل من يشك^(٢) في عصمته،^(٣) ولكي يؤصل هذا الادعاء عند اتباعه ألف لهم كتاب أعز ما يطلب،^(٤) وأمرهم بقرآته بل حفظه، وهذا بلاشك مما أصل فكر ابن تومرت ومحبته في نفوس أصحابه، «إلى أن بلغوا في ذلك إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه، أو أخيه، أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير ابطاء» كما يذكر المراكشي.^(٥)

وقد يكون هذا الوصف من قبل المراكشي فيه شيء من المبالغة لكنه يستوحى منه أن أتباع ابن تومرت قد اعتقدوا عصمته، ولهذا فانه أصبح مطاع الأمر والنهي فيهم، حتى ولو كان ما يأمرهم به أمر محرم شرعا.

٣ - ادعى ابن تومرت انه هو المهدي الذي وعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بخروجه في آخر الزمان، حيث قال في خطبته حين مبايعته اماما للموحدين سنة ٥١٥هـ: «الحمد لله الفعال لما يريد القاضي بما يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا بيعته الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور مكانه بالمغرب الأقصى، واسمه اسم النبي ونسبه نسب النبي...»^(٦)

(١) ابن تيمية: منهاج السنة ج ٣ ص ١٧٢ - ١٧٥.

(٢) اباح ابن تومرت دم كل من شك في عصمته أو خالفه فيها يدعو إليه، ولهذا كان يقوم بها أسباه بعملية التمييز لأصحابه وهي التعرف على ولاء اتباعه وإيمانهم بما قاله أو دعا إليه فمن شك في ولائه أو أظهر له شيئا من المخالفة أمر بقتله، وسنفضل القول في هذا في آخر هذا البحث - ان شاء الله -.

(٣) البليدق: اخبار المهدي بن تومرت ص ٣٩، ابن تيمية منهاج السنة ج ٣ ص ١٧٥.

(٤) سمي هذا الكتاب باعز ما يطلب لأنه بدأه بقوله: أعز ما يطلب واسنى ما يتغنى، وقد ضمنه أهم آرائه في القول بالعصمة وغيرها، ويعتبر هذا الكتاب من الكتب الهامة عند الموحدين، وقد نشر بالجزائر لأول مرة سنة ١٩٠٣م بعناية لوسيان حيث ضم معه عشرين رسالة صدرت من ابن تومرت إلى اتباعه يعالج بعض القضايا الفقهية والعقدية وغيرها وذلك من وجهة نظر ابن تومرت، ثم طبع بالجزائر سنة ١٩٨٥م بتحقيق الدكتور عمار الطالبي حيث زاد عليه بعض الرسائل التي كتبها ابن تومرت.

(٥) المعجب ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٦) ابن القطان: نظم الجمان ص ٧٥.

كما يذكر المراكشي^(١) انه صرح لأصحابه بأنه المهدي المعصوم، وروى لهم في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر في نفوسهم انه المهدي وبسط يده فبايعوه على ذلك، أما ابن خلدون فذكر أنه «لما كملت بيعته لقبوه بالمهدي وكان لقبه قبلها الامام»^(٢).

ولم يكتف ابن تومرت بهذا الاجراء، بل انه أكد لهم هذا الاتجاه الفكري في مؤلفاته التي طالب اتباعه بحفظها، والعمل بما جاء بها، ومما جاء بها عن قضية المهدي قوله: «ان العدل ارتفع، وانا لجور عم، وان الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا، وان الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا، وان الدجالين استولوا على الدنيا، وان الباطل لا يرفعه إلا المهدي، وان الحق لا يقوم إلا بالمهدي، وان المهدي معلوم في العرب، والعجم، والبدو والحضر، وان العلم به ثابت في كل مكان وفي كل أوان وآن...»^(٣).

وبعد أن قرر ابن تومرت مبدأ ظهور المهدي، عدد صفاته بقوله: «انه فرد زمانه صادق في قوله، وأنه يملأها بالعدل - يعني الأرض - كما ملئت بالجور، وأن أمره قائم إلى أن تقوم الساعة...»^(٤).

ثم ذكر بعد ذلك المهام التي سيقوم بها المهدي حيث بينها بقوله: «وأنه - يعني المهدي - معصوم فيما دعا إليه من الحق لا يجوز عليها خطأ وأنه لا يكابر، ولا يضاد، ولا يدافع ولا يعاند، ولا يخالف ولا ينازع... وأنه صادق في قوله، وأنه يقطع الجبابرة والدجاجلة، وانه يفتح الدنيا شرقها وغربها، وأنه يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور...»^(٥).

هكذا كان رأى ابن تومرت في المهدي، كما يصور ذلك ترائه الفكري، ويلاحظ هنا كيف تجرأ ابن تومرت فكذب على الله ورسوله حينما حدد مكان ظهور المهدي

(١) المعجب ص ٢٧٥.

(٢) العبر ج ٦ ص ٢٢٨.

(٣) ابن تومرت: أعز ما يطلب ص ٢٥٧.

(٤) المصدر السابق ص ٢٥٦.

(٥) المصدر السابق ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

بالمغرب الأقصى مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لم تشر إلى ذلك.^(١)

ولما كان هذا الادعاء من قبل ابن تومرت فيه شطط وانحراف عن المنهج الإسلامي الصحيح ، الأمر الذي قد يثير ضده كثيرا من المعارضين الذين قد لا يقبلون مثل هذا القول ، فإنه أحاط دعواه بالمهدية بسياح قوى من الأحكام الصارمة ضد الخارجين عليها ، حيث أمر بالقيام بعمليات التمييز ضد أولئك المكذبين أو المعاندين والمكابرين للمهدي كما أحل دمهم.^(٢)

وبهذا العرض لنظرية المهدي كما يراها ابن تومرت ، ندرك أنه قد حاول تأصيلها في نفوس اتباعه ، وأنه قد وضع ضوابط تنطبق عليه ، ليصل من خلالها إلى ما يريد ، ولتكون جسرا يحقق بواسطتها مطامعه وطموحاته ، وقد أخذ كثيرا من اتباعه هذا الادعاء بالقبول حيث أصبحوا يلقبونه بالمهدي بعد أن كانوا يلقبونه بالامام!^(٣)

٤ - أن ابن تومرت تأثر بكثير من المذاهب والفرق الإسلامية ، حيث أخذ منها ما يلائم اتجاهاته ، ويخدم أهدافه ، ولهذا جاء تراثه الفكري خليطا مضطرباً متأثراً بكثير من النزعات الفكرية الغالية ، فهو في مسألة الامامة يقول برأي الرفضية حيث ضمن كتابه أعز ما يطلب هذا الرأي حين حديثه عنها حيث قال : « لا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب الامامة في كل زمان إلى أن تقوم الساعة ما من زمان إلا وفيه امام لله قائم بالحق . . »^(٤) وهو بهذا القول يوافق الشيعة الذين يجعلون الامامة أصلا من أصول الدين حيث أنهم يقولون : « ان الامامة أصل من أصول الدين لا يتم الايمان

(١) يقول أهل السنة والجماعة بخروج المهدي في آخر الزمان وهم يعتمدون في ذلك على الأحاديث الصحيحة التي ثبتت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومنها ما رواه ابن مسعود وغيره عن النبي - صلى الله عليه وسلم - انه قال : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه رجل مني أو من بيتي يواطء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما » . رواه الترمذي وأبو داود .

(ابن تيمية : منهاج السنة ج ٤ ص ٢١١) .

(٢) عبدالله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٢٣ .

(٣) ابن خلدون : العبرط ببيروت ج ١١ ص ٤٧٠ .

(٤) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ٢٤٥ .

إلا باعتقادها ولا يجوز فيها تقليد الآباء والأهل والمربين مهما عظموا وكبروا، بل يجب النظر فيها كما يجب النظر في التوحيد والنبوة»^(١).

كما وافق ابن تومرت الرافضة في تصوره للامامة حيث يعتبر أن هذه الواجبات إزاء الامام إذا ما أقيمت تم بها الأمر، وثبت بها العمود الذي قامت عليه السموات والأرض وهو الامام، أما متى ضيع أمر الامام أو عصى أو نوزع أو خولف أو أهمل فانه ينتج عن ذلك مفسد كثيرة.^(٢)

كذلك تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة حيث قال ببعض آرائهم كقوله: ان الله لا يكلف العبد ما لا يطيق، كما سمي مرتكب الكبيرة بالفاسق ولم يسمه بالمؤمن أو الكافر، وهذا قريب من مذهب المعتزلة.^(٣)

كما وافقهم، في نفى الصفات عن الله - سبحانه -^(٤) حيث قال حينما تحدث عن صفات الله: «واشتغلوا بتعلم التوحيد فانه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق التشبيه، والشريك، والنقائص، والآفات، والحدود والجهات، ولا تجعلوه سبحانه في مكان ولا في جهة فانه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقا ومن جعله مخلوقا فهو كعابد وثن».^(٥)

هكذا تبنى ابن تومرت مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات حيث نفى كل ما عساه أن يوهم الشبه والمثلية لله سبحانه حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة، ولهذا سمي أصحابه بالموحدين،^(٦) لأنهم في رأيه هم

(١) محمد رضا المظفر: عقائد الامامية ص ٧١.

(٢) عبد الحميد النجار: المهدي بن تومرت ص ٢٣٧.

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٢.

(٤) المراكشي: المعجب ص ٢٧٥.

(٥) ابن تومرت: أعز ما يطلب ص ٢٠٤.

(٦) يرى الدكتور حسين مؤنس: أن قول ابن تومرت بالتوحيد وتسميته أصحابه بهذا الاسم انها كان له أكثر من مغزى سياسي بينها بقوله: «ان قوله بالتوحيد على النحو الذي بينه انها كان سياسة ماهرة ضد المرابطين فقد رماهم

الذين يوحّدون الله حقاً لتفهم الصفات عن الله سبحانه وتعالى،^(١) كما كان يسمى أتباعه بالمؤمنين ويقول لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن بإيمانكم.^(٢)

كما نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله - سبحانه وتعالى - حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذى حمل أهل المغرب على القول بالتأويل والأخذ بالمذهب الأشعرى في كافة العقائد،^(٣) كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل، حيث كان «... . جُل تومرت تعلم المذهب الأشعرى أثناء وجوده في بلاد العراق، فلما عاد إلى بلاد المغرب، وأخذ بتعليم أصحابه علّمهم المذهب الأشعرى فكان ذلك سبباً في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب.^(٤)

وبالإضافة إلى ما سبق فإن الدارس لتراث دعوة ابن تومرت يدرك أنه قد تأثر بكثير من آراء الخوارج لا سيما في التساهل بسفك الدماء، ومقاومة السلطان الجائر حتى جعله ضرباً من الجهاد في سبيل الله، كما أخذ برأيهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها، وقد أدرك هذا التأثير علماء المرابطين كما يذكر بن الخطيب.^(٥)

وبعد هذا العرض يتبين لنا أن دعوة ابن تومرت قد تأثرت بآراء كثير من الفرق والمذاهب الإسلامية، فهي ليست أشعرية بحتة، وليست معتزلية تقوم على الأدلة

= بالتجسيم والكفر واعتبر نفسه وأصحابه انصار التوحيد وقد جازت هذه الدعاوى على معظم أهل المغرب في زمانه فانضموا إليه... والمهم عندنا ان ابن تومرت استطاع بدعوى التوحيد التي ابتدعها ان يجمع الناس حوله...» (حسين مؤنس: عقد بيعة بولاية العهد، مقال منشور في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، مجلد ١٢ سنة ١٩٥٠م ص ١٤٩).

(١) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٤٩.

(٢) المراكشي: المعجب ص ٢٧٦.

(٣) العبر ج ٦ ص ٤٦٦.

(٤) المعجب ص ٢٧١.

(٥) الخطط ج ٢ ص ٣٥٨.

(٦) أعمال الاعلام القسم الثاني ص ٢٦٦ - ٢٦٧، وانظر أيضاً عبدالله علام: الدعوة الموحدية ص ١٥١.

العقلية وحدها، وليست خارجية كما ظنها علماء المرابطين، وهي أيضا ليست رافضية في كل اتجاهاتها، بل هي مزيج مضطرب من أغلب الفرق والمذاهب الإسلامية، ولهذا فإنه يبدو من المقبول أن يطلق عليها العقيدة التومرتية، وذلك لتمييزها عن كل المذاهب السابقة بمنهج مستقل.^(١)

وما لا شك فيه أن هذا التأثير العقدي والفكري الذي انتاب دعوة ابن تومرت كان له أثره بعد ذلك على بلاد المغرب، حيث أن هذه الدعوة أصبح لها كيان سياسي يحميها، وهذا الكيان امتد نفوذه السياسي وظله الفكري على معظم بلاد المغرب، وقد أدرك هذا التأثير المؤرخ المغربي السلاوي، حيث صوره بقوله: «... وأما حالهم - يعني أهل المغرب - في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولاً والرافضية ثانياً أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف - رضي الله عنهم - في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر... واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة^(٢)». وهكذا اعتبر السلاوي خروج ابن تومرت في بلاد المغرب خروجاً لأهله عن مذهب أهل السنة والجماعة، وذلك لتأثرهم بدعوته التي كانت متأثرة بآراء وأفكار كثير من الفرق الإسلامية مما أبعدها عن منهج أهل السنة والجماعة.

٥ - ومن الاتجاهات الفكرية الخطيرة التي تبناها ابن تومرت، انه كفر من لم يؤمن بما يقول، ويعتق ما يدعو إليه، واستباح دمه حتى ولو كان من أتباعه،^(٣) كما قال بكفر دولة المرابطين ووجوب جهادها، ولتأصيل هذا المبدأ في نفوس أصحابه فقد صرح به في أكثر من مناسبة، كما ضمنه كتبه التي ألفها لهم، ورسائله التي كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا، حيث جاء في إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا «... على اهلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس

(١) عبدالله غلام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ١٥١.

(٢) السلاوي ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٣) البيهقي: اخبار المهدي بن تومرت ص ٣٩.

في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم، وسفك دماءهم، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وأخذ أموال اليتامى والأرامل . . . »^(١).

ويذكر المراكشي أنه لما توجه جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة ٥١٧هـ أوصى أفراد ذلك الجيش بقوله: «اقصدوا هؤلاء المراقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين فادعوهم إلى أمارة المنكر واحياء المعروف وإزالة البدع والاقرار بالإمام المهدي المعصوم، فان اجابوكم فهم اخوانكم، وان لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم . . . »^(٢).

وبالإضافة إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التي قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين، فان القاريء لكتاب أعز ما يطلب يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات والدعاوى الباطلة ضدهم، بل انه قد افرد فصولا خاصة منه لهذا الغرض.^(٣)

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم فأخذوا بالتصدي لها حيث بينوا للناس كذب تلك التهم التي الصقها بهم ابن تومرت، وأنها مخالفة للحقيقة، ولكن هذا العمل لم يثن ابن تومرت عن حربه الدعائية بل أنه كثف جهوده في هذا الميدان، ومما جاء في إحدى رسائله التي وجهها لهذا الغرض «واعلموا وفقكم - يعني أتباعه - ان المجسمين والمكابرين وكل من نسب إلى العلم، أشد في الصد عن سبيل الله من ابليس اللعين فلا تلتفوا إلى ما يقولون فانه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله».^(٤)

كان هذا هو رأى ابن تومرت في دولة المرابطين، وموقفه من تلك الدولة السنية، التي أقامت كيانها على مذهب أهل السنة والجماعة والدعوة إلى الله على هدى من سنة

(١) ابن تومرت: أعز ما يطلب (تحقيق عمار الطالبي) ص ٢٦٠.

(٢) المعجب ص ٢٨٢.

(٣) من هذه الفصول على سبيل المثال «باب في بيان طوائف المبتلين الملتئمين والمجسمين وعلاماتهم» و «باب فيما أحدثوه من المنكر والمغارم . . . » انظر في تفصيلات ذلك كتاب أعز ما يطلب (تحقيق عمار الطالبي) ص ٢٤٢ - ٢٤٩.

(٤) البيهقي: اخبار المهدي بن تومرت (نشر يروفسال) ص ٤.

الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد طعن في عقيدتهم ووصفهم بأنهم مجسمون وكفار لا تجوز طاعتهم، ولا الولاء لهم، بل يجب جهادهم، ولهذا قاتل الموحدون المرابطين، قتال المسلمين للكفار حسب اعتقادهم، وما ذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نحى في حربه للمرابطين منحى فكريا عقديا غالى فيه حتى أصبح العداء للمرابطين اتجاها فكريا واضحا عند ابن تومرت وأتباعه المخلصين لدعوته.

ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه الذى حدده ابن تومرت من دولة المرابطين، قد أثر على معنويتها، ثم على كيانها السياسي، وذلك لأن كثيرا من الناس قد تبنوه، ومن ثم انبروا للعمل على حرب هذه الدولة، والسعي إلى إسقاطها لتقوم دولة ابن تومرت على انقاضها.^(١)

٦ - تساهل ابن تومرت في إراقة الدماء، دونما مسوغ شرعي، حيث كان لا يتردد في ذلك، حينما يرى أنه يخدم دعوته، أو يحقق شيئا من مطامحه مهما كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض، وقد تأصل هذا العمل عند ابن تومرت حيث ألبسه لباسا دينيا حتى أصبح اتجاها دعويا واضحا في دعوته، ومن نماذج عمله في هذا الميدان ما ذكره ابن القطان - أحد تلاميذ ابن تومرت - أنه كان يعظ تلاميذه وأنصاره في كل وقت «... ومن لم يحظر أدب فان تمادى قتل، وكل من لم يحفظ حربه عزز بالسياط، وكل من لم يتأدب بما دأب به ضرب بالسوط بالمرّة والمرتين فان ظهر منه عناد وترك امتثال الأوامر قتل ومن داهن... قتل».^(٢)

كما ذكر كل من البيهقي،^(٣) وابن القطان،^(٤) وغيرهما من المؤرخين^(٥) أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمى بعملية التمييز لأتباعه حيث يقتل كل من يشك في ولائه لدعوته،

(١) عبدالله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ١٨١.

(٢) نظم الجيان ص ٣٩.

(٣) اخبار المهدي (تحقيق عبد الحميد حاجيات) ص ٧١ - ٧٢.

(٤) نظم الجيان ص ١٠٢ - ١٠٤.

(٥) من هؤلاء المؤرخين ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٢٩٧، ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٤٧١، السلاوي:

الاستقصا ج ٢ ص ٨٨.

وقد ذكر لنا البيذق وصفا لعملية التمييز التي قام بها ابن تومرت قبل موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ حيث قال: «فأمر بالميز فكان البشير^(١) يخرج بالمخالفين المنافقين والخبثاء من الموحدين، حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عيانا، وازداد الذين آمنوا إيماناً وذاق الظالمون النار، فظنوا مواقعوها، وما لهم عنها من محيص... فمات يومئذ من الناس خمس قبائل...».

ويبدو أن الذي دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التمييز لا سيما في تلك السنة هو تراجع عدد كبير من الداخليين في دعوته عنها، وذلك بسبب ما تحمله من غلو وشطط، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في اخلاصهم خشية أن يقوى رد الفعل المضاد لدعوته،^(٢) ولما حل ابن تومرت بتينملل، أواه أهلها، وأعلنوا طاعتهم له، لكنهم كانوا كثيري العدد وافري العدة، وفي منعة بسبب حصانة مدينتهم، فأمرهم ابن تومرت بأن يحضروا إلى المسجد بغير سلاح فلما فعلوا ذلك عدة مرات أمر بعض أتباعه المقربين أن يقتلوهم ففعلوا، ثم دخلوا المدينة وقتلوا منها عددا كبيرا من الرجال حتى بلغ عدد الذين قتلوا بهذه الحادثة خمسة عشر ألف رجل.^(٣)

ولكي لا تحدث هذه الأعمال رد فعل عند اتباعه، أو تلفي معارضة عند الناس، فانه كان يظهر لأصحابها انه يقوم بشيء من الخوارق والمعجزات حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية ما يقوم به، ويدعو إليه، فقد ذكر المؤرخون انه كان يتوطأ مع بعض أصحابه على أن يدفنهم في المقابر وهم أحياء، حيث يترك لهم مكانا للتنفس، ويأمرهم بأن يكلموه إذا دعاهم، وليشهدوا له بما يطلبه منهم كأن يشهدوا بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنه هو الذي يملأ الأرض قسطا

(١) البشير هو: أبو محمد عبدالله بن محسن الونشريشي المشهور بين الموحدين بالبشير أحد العشرة الذين اصطفاهم ابن تومرت للأمور الخاصة حيث اسند إليه مهمة عملية التمييز سنة ٥٢٤هـ، توفي في موقعة البحيرة في تلك السنة.

(البيذق: المقتبس من كتاب الانساب ص ٢٤).

(٢) اخبار المهدي بن تومرت (تحقيق بروفنسال) ص ٧٨.

(٣) عبدالله علام: الدعوة الموحدية ص ١٩١ - ١٩٢.

(٤) ابن القطان: نظم الجمان ص ٣٩ - ٤٠، ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٢٩٦.

وعدلا ، كما ملئت جورا وظلما ، وأن من اتبعه أفلح ، ومن خالفه خسر ، وحينما يسمع أتباعه أن الموتى يكلمونه ، ويشهدون له بصحة ما يدعو إليه يعظم اعتقادهم فيه ، وتتأكد طاعتهم له ، أما أولئك المقبورون فانه بعد أن ينهوا المهمة التى من أجلها قبوروا يستبيح دمائهم حيث يهدم عليهم قبورهم حتى يموتوا لكى لا يفشوا سره بعد ذلك .^(١)

هذه صور وأمثلة للأعمال التى قام بها ابن تومرت واستحل بها دماء الناس المعصومة بغير حقها ، حتى ولو كانوا من أنصاره أو المقرين إليه ، ولا شك أن هذا العمل يعد فى نظر الإسلام كبيرة من كبائر الذنوب حتى ولو كان المقتول شخصا واحدا ، فكيف يجوز لابن تومرت أن يقدم على هذه الأعمال المتنافية مع الشرع الخفيف وهو يحسب نفسه داعية إلى الله بل مهديا معصوما ؟!

وتكوّن هذه الأعمال التى قام بها ابن تومرت فى ميدان سفك الدماء دليلا آخر على أنه قد تشطط فى دعوته ، وخرج بها فى بعض تصرفاته عن النهج الإسلامى الصحيح .

ومن العجيب الغريب حقا أن أحد الباحثين المحدثين قد حاول أن يبرر هذه الأعمال التى قام بها ابن تومرت ، حيث ادعى أن نسبتها إلى ابن تومرت قد داخلها عامل الهوى فلم تكن معبرة عن حقيقة ما يجري ، كما قال «ان هذه المآخذ ذكرها صنفان من المؤرخين : الصنف الأول منها طائفة عرفت بالانتصار للمهدي ، وموالاة ابن تومرت ، والتشيع لدولة الموحدين مثل ابن القطان ، والبيذق ، وغيرهما . أما الصنف الثانى فهم أولئك الذين عرفوا بالقدح فى دعوة ابن تومرت والطعن فى امامها مثل ابن عذارى وابن أبي زرع ، وابن الأثير وغيرهم ،^(٢) وقد رد هذا الكاتب كل ما ذكره هذان الصنفان بحجة أن الصنف الأول منها ربما نقلوا هذه الأحداث عن بعض المفتونين بابن تومرت ، أو اصطنعوها من عندهم ، على انها من مفاخر ابن تومرت وكراماته ، ومن مظاهر قوته وشدة بأسه واطلاعه على الغيب ، واوردوها فى نطاق ايمانهم بأن الامام لا يسأل عما يفعل لأنه المؤيد بالهداية الالهية .

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٢٩ ، ابن تيمية : الفتاوى ج ١١ ص ٤٧٧ .

(٢) عبد الحميد النجار : المهدي بن تومرت ص ١٤١ .

أما الصنف الثاني، فقد رد رواياتهم بحجة ان ابن أبي زرع، وابن عذارى كانا قد كتبا تاريخهما في ظل الدولة المرينية التي قامت على انقاض الدولة الموحدية، وعملت على التهجم عليها والنيل منها، أما ابن الأثير فقال عنه إنه لم يكن خبيرا ولا مطلعا على شؤون المغرب وأخباره وانما كان ناقلا عن غيره من غير رؤية أو تمييز.^(١)

والذى يبدو أن هذه التبريرات التى أوردها هذا الباحث غير علمية وبالتالي ليست مقبولة، فلو قبلنا - جدلا - ما قاله عن الطائفة الثانية فكيف نقبل ما قاله عن الطائفة الأولى؟ لأن افرادها من تلاميذ ابن تومرت والمقربين إليه، ومن الصعب أن يذكروا عنه شيئا لم يفعله، وإذا كان قد رباها على أنه لا يستل عما يفعل كما يقول الباحث فهذا مأخذ آخر يضاف إلى المآخذ الكثيرة التى أخذت على ابن تومرت، ثم كيف يجيب هذا الباحث على ادعاء ابن تومرت العصمة؟، وأنه يجوز له أن يقتل من لا يحفظ كتابه الذى ألفه لتلاميذه؟ وهذه الأمور قد ذكرها ابن تومرت فى مؤلفاته ولا مجال لانكارها، وهى بلا شك لا تقل خطورة عن سفك الدم المعصوم بغير حق.

وبهذا العرض نرى أن ابن تومرت قد برر أي عمل، أو تصرف يرى أنه يخدم دعوته، ومنها سفك الدماء المعصومة دونما مسوغ شرعي يبيح له ذلك، بل إنه قد بالغ فى هذا العمل حيث تجاوز الأفراد الى الجماعات والقبائل حتى أصبح أمرا مألوفاً عند أتباعه، واتجهاها واضحا فى ميدان نشر دعوته، وحتى شعر كثير من الناس أن ما يقوم به ابن تومرت فى هذا المجال انما هو عمل شرعي نفذه من أجل خدمة دعوته، ويدل على هذا الشعور أن أعماله هذه لم تلق مواجهة أو مقاومة حينما يشرع فى تنفيذها، حيث كان الناس يستسلمون له ليفعل بهم ما يشاء باعتباره لا يستل عما يفعل كما يظن الكثيرون منهم.

كان هذا عرضا للاتجاه الفكري الذى سارت عليه دعوة ابن تومرت ومن خلاله تبين لنا أن هذه الدعوة قد انطلقت من عدة اتجاهات ومشارب فكرية عقدية حاول ابن تومرت أن يجعلها محاور رئيسة لدعوته ليصل من خلالها إلى ما يريد من أمور

(١) المرجع السابق ص ١٤١ - ١٤٢.

دعوية أو سياسية، وقد حاول ابن تومرت أن يصبغ هذه الاتجاهات بصبغة دينية ليكون قبولها عند الناس أقوى، فأدعى النسب القرشي والعصمة والمهدية، كما أنه حدد موقفه من دولة المرابطين وهي الدولة التي تبتت دعوته في أرضها وتحت مظلتها السياسية، فبين للناس أن هذا الموقف من قبله له بُعد ديني ومغزى دعوى بسبب عدم اكتراث حكام دولة المرابطين بأمور الإسلام، ووضع المسلمين.

كما تبين لنا - أيضا - أن من الاتجاهات الفكرية الواضحة في دعوة ابن تومرت العمل على تأصيل ما يدعوا إليه في نفوس أصحابه بكل الوسائل والأسباب مهما كانت مشروعيتها حتى أصبحت تلك الوسائل تشكل اتجاهها واضحا تميزت به دعوة ابن تومرت كالتساهل في اراقة الدماء، وتكفير المعارضين والخصوم والعمل من أجل القضاء عليهم.

وقد أعان ابن تومرت على تحقيق ما يصبو إليه من اجتذاب المؤيدين والأنصار ونشر أفكاره بينهم في بلاد المغرب ما سار عليه من خطوات محكمة أثناء نشره لدعوته، إضافة إلى ما كان يتصف به أهل المغرب الأقصى من سذاجة وجهالة،^(١) فضلا عما كان يتمتع به ابن تومرت من ذكاء وعلم وقدرة على التنظيم والتأثير.^(٢)

وهنا قد يتساءل البعض فيقول: هل هذا الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت قد تأصل في نفوس أفراد دولة الموحدين عامتهم وخاصتهم، فأخذوا يعملون بمقتضاه، ويسرون وفق اتجاهه وخطاه، أم أنهم بعد موت ابن تومرت، ومع مضي الزمن، بدأوا يتحللون من تعاليم تلك الدعوة ويسرون في اتجاه غير اتجاهها؟، وللإجابة على هذا التساؤل يقال: ان اتباع ابن تومرت يمكن تقسيمهم إلى صنفين: الصنف الأول وهم التلاميذ والأصحاب المقربين الذين اعجبوا بدعوة ابن تومرت، وتعلقوا بها، وهذا الصنف بقي على ولائه لتلك الدعوة حتى بعد وفاة ابن تومرت، وقد عرف هذا الصنف عند المؤرخين بشيوخ الموحدين.

(١) المراكشي: المعجب ص ٢٧٠.

(٢) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٢٨، سعد زغلول عبد الحميد: محمد بن تومرت ص ٢٧.

أما الصنف الثاني فهم الذين دخلوا بها في بادئ الأمر، وهم معجبون بها لكن حماسهم بدأ بالفتور ازائها مع مضي الوقت، ويشكل القادة السياسيون شريحة هامة من شرائح هذا الصنف، فقد خلف ابن تومرت في الحكم تلميذه عبدالمؤمن ابن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ) الذي أعلن محبته لدعوة ابن تومرت، وتظاهر بأنه سيعمل على نشرها في بلاد المغرب والأندلس، لكن المتتبع لتأريخ هذا الرجل يدرك بجلاء أن هذا الحماس ما لبث أن تبدد حيث انشغل عبدالمؤمن عن ذلك بالأمور السياسية والعسكرية واكتفى بالقيام بزيارة قبر ابن تومرت بين الفينة والأخرى، كرمز على محبته له ولدعوته، أما العمل على تأصيلها في نفوس الناس ونشرها في أماكن جديدة، فلم يذكر المؤرخون - حسب علمي - أنه قام بشيء من هذا، ويدل على ذلك أن عبدالمؤمن لما بسط سلطانه على بلاد المغرب والأندلس لم تنتشر دعوة ابن تومرت في تلك الديار، ولم تتأصل محبتها في قلوب سكانها كما تأصلت عند سكان بلاد المغرب الأقصى الذين انتشرت بينهم تلك الدعوة في عهد ابن تومرت.

ومن الباحثين^(١) من يرى أن عبدالمؤمن قد سار على نهج ابن تومرت في نشر الدعوة التومرتية، واستدل على هذا الرأي بأن عبدالمؤمن قد استمر بالبرنامج التعليمي الذي وضعه ابن تومرت حيث كان مستمدا من تعاليمه، إلى جانب أن أوامره قد صدرت إلى كافة الموحدين بشأن ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها، ولكن يجاب على هذا القول، بأن هذه الخطوات التي اتخذها كانت طبيعية بل انها ضرورية لرجل يعتبر التلميذ الأول لابن تومرت، فضلا عن كونه قد خلفه في رئاسة الدولة، وذلك لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت، والذين بايعوه خلفا لابن تومرت، لكن عبدالمؤمن لم يكن جادا في هذا، بدليل أن ظل الدعوة الموحدية لم يسر جنبا إلى جنب مع الظل السياسي للدولة في عهد عبدالمؤمن كما هو الحال بالنسبة لعهد ابن تومرت.

وقد أخذ هذا الضعف ازاء دعوة ابن تومرت يزداد في عهد يوسف بن عبدالمؤمن

(١) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ص ٤٦٠.

(٥٥٨ - ٥٨٠ هـ). حيث لم يقم هذا السلطان الموحدى بأى عمل لخدمة دعوة ابن تومرت سوى الاشادة بمؤسستها والدعاء له في المراسلات وعلى المنابر،^(١) حيث يذكر المراكشي^(٢) ان السلطان يوسف بن عبدالمؤمن دعا إلى الأخذ بالكتاب والسنة ونبذ ما سواهما وذلك حينما دخل عليه أبوبكر بن الجند وبين يديه بعض الكتب الفقهية فقال له: ياأبا بكر أرايت المسألة فيها أربعة أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأى هذه الأقوال هو الحق؟ وأيهما يجب أن يأخذ بها المقلد؟ فقال أبوبكر فافتتحت أبين له ما يُشكل عليه من ذلك لكن يوسف قطع كلامه وقال له: ياأبا بكر ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف أو هذا، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه أو السيف.

ويلاحظ هنا أن السلطان يوسف بن عبدالمؤمن قد صرح بعدم ارتياعه لجميع كتب الفروع بما فيها مؤلفات ابن تومرت والتي أخذ كثير من الموحدين بما فيها دون سواها، ولا استبعد أن يكون هذا الاجراء من قبل السلطان يوسف انما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت لكنه لم يستطع أن يفرد لها دون غيرها حتى لا يثير الناس ضده.

وهكذا يتبين لنا أن السلطان عبدالمؤمن بن علي ثم خليفته السلطان يوسف بن عبدالمؤمن لم يكونا متحمسين لنشر دعوة ابن تومرت، وان أبديا ظاهريا أنهما مهتمين بها، وينشر تراثها ودعوة الناس إلى تعلمه والعمل بموجبه، حيث أصدر الأوامر وبعث الرسائل من أجل هذا الغرض،^(٣) لكنهما بالحقيقة وكما يوحى بذلك تاريخهما لم يكونا جادين في ذلك، ولعل ما تحمله دعوة ابن تومرت من شطط وغلو في بعض افكارها من الأسباب الرئيسة التي جعلتهما يحجمان عن العمل على نشرها حتى لا يحدث رد فعل مضاد لهما مما يعرض دولتهما للخطر، أما تظاهرها بأنهما يعملان على نشرها والذود عنها، فهذا أمر طبيعي لأن دولتهما انما قامت على اكتاف معتنقي هذه الدعوة وهم شيوخ الموحدين.

(١) ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص ١٣٢، ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة ص ٢٧٦ - ٣٠٣، حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ص ٤٦١.

(٢) المعجب ص ٢٠٢.

(٣) انظر مثلا الرسالة التي وجهها السلطان عبدالمؤمن لأهل بجاية سنة ٥٥٦ هـ. (ليفى بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ص ١٣٢).

ومع مضى الزمن أخذ حماس زعماء دولة الموحدين يقل ازاء الدعوة، بل ان بعض زعماء الموحدين تجرؤا فأعلنوا براءتهم مما تحمله من غلو وانحراف، حيث يذكر المراكشي أن السلطان يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن (٥٨٠ - ٥٩٥هـ) - ثالث أمراء الموحدين بعد ابن تومرت - قال لأبي العباس أحمد بن ابراهيم ابن مطرف المرى - أحد المقربين إليه - : ياأبا العباس أشهد لي بين يدي الله عز وجل أني لا أقول بالعصمة - يعني عصمة ابن تومرت - كما يذكر أبوالعباس أيضا أنه قال له يوما وقد استأذنه في فعل شيء يفتقر إلى وجود الامام : ياأبا العباس أين الإمام؟ أين الامام؟^(١)

ولم يكتف المنصور بهذا بل أنه حاول ارجاع الناس إلى الكتاب والسنة واستئصال ونبد تعاليم ابن تومرت التي توغلت في قلوب بعض الناس بالمغرب والأندلس - آنذاك - ، حيث يذكر المراكشي أن السلطان يعقوب المنصور بعد انتصاره في معركة الأرك^(٢) سنة ٥٩١ ذهب لمدينة جيان^(٣) فخرج أهلها لتلقيه وتهنئته بالنصر فلما اقتربوا منه قدموا أحدهم ويدعى أبابكر بن هانيء لتكليمه يقول أبوبكر: « . . . فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضائه وولاته وعماله - على ما جرت عادته - فلما فرغت من جوابه سألتني : كيف حالي في نفسي؟ فشكرت له ، ودعوت بطول بقاءه ، ثم قال لي : ما قرأت عن العلم؟ قلت : قرأت تواليف الامام - أعني ابن تومرت - فنظر إلى نظرة المغضب وقال : ما هكذا يقول الطالب! انما حكمك أن تقول : قرأت كتاب الله ،

(١) المعجب ص ٣٦٩.

(٢) الأرك : أحد الحصون الأندلسية المنيعه يقع غرب قلعة رباح وقعت فيه بين المسلمين بقيادة السلطان الموحدي يعقوب المنصور وبين النصارى بقيادة الفونسو الثامن ملك قشتاله معركة حاسمة وذلك في شهر شعبان سنة ٥٩١هـ، حيث تمكن الموحدون من احراز نصر كبير، على اعدائهم النصارى، فقتلوا منهم ما يربو على ثلاثين ألفا كما أسروا وغنموا الكثير، ولما كانت هذه الموقعة قد وقعت بالقرب من حصن الأرك فقد نسبت إليه (راجع في تفصيلات هذه المعركة كلا من المراكشي: المعجب ص ٣٨٢، ابن عذاري: البيان المغرب ج ٣ ص ١٩١ - ١٩٥، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ٢٢٢ - ٢٢٣، يوسف اشباخ: تاريخ الأندلس ص ٨٧) .

(٣) جيان مدينة اندلسية كبيرة تقع شرق مدينة قرطبة وبينها وبين مدينة بياسة عشرون ميلا، ولها قصبة تعد من القصباب الموصوفة بالخصانة، وتقع على رأس جبل عال وهي كثيرة البساتين ويتبعها حوالي ثلاثة آلاف قرية (ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ١٩٥، الحميري: الروض المعطار ص ١٨٣) .

وقرأت شيئاً من السنة، ثم بعد هذا قل ما شئت . . .»^(١)

ويضيف المراكشي أيضاً حين حديثه عن عقيدة العامة في ابن تومرت، أن يعقوب المنصور استخف بعقول من بالغوا في تعظيم ابن تومرت وتقديسه، والعمل بما قال به، أو دعا إليه «لأنه لا يرى شيئاً من هذا كله وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت . . .»^(٢) ولعل هذا الشعور هو الذى دفعه إلى أن يؤثر في الطلبة الذين جاؤا من أنحاء بلاد المغرب والأندلس لطلب العلم في حاضرة الدولة على شيوخ الموحدين الذين تأصل حب ابن تومرت وما دعا إليه في نفوسهم فلما بلغه حسد شيوخ الموحدين لهؤلاء الطلبة على مكائنتهم عنده وتقريبه لهم خاطبهم قائلاً: « . . . يامعشر الموحدين انتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء - يعنى الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإليّ فزعهم وإليّ يتسبون»^(٣).

وهكذا نرى أن دعوة ابن تومرت وإن كانت قد تغلغلت في قلوب بعض المعجبين بها من السذج والعامة من الناس في بعض بلاد المغرب الأقصى والأندلس فإن ما تحمله من شطط وغلو قد بدا لمن كان عنده شيء من العلم مما دفع العقلاء من الموحدين وهم يعدون حمائها إلى العمل على إزالتها والسعي لبيان وجه الخطأ فيها، فالمنصور ثالث امراء الموحدين بعد ابن تومرت عمل على بيان باطلها وسعى لتقويضها ولم يمتز على انتشارها بين الناس سوى نصف قرن، وهي مدة قصيرة في عصر الدعوات، لكن ما تحمله هذه الدعوة من جنوح في بعض أفكارها جعلت أقرب الناس منها يسعون لتقويضها - كما بينا في السطور السابقة - .

وهنا قد يرد تساؤل وهو: لماذا لم يعلن المنصور الموحدى للناس صراحة بطلان ما دعا إليه ابن تومرت ويعمل جادا للقضاء على دعوته؟ .

وللإجابة على هذا التساؤل يقال: ان الكثير من الناس ببلاد المغرب الأقصى، لا سيما العامة وشيوخ الموحدين، وزعماء القبائل، قد تعلقوا بدعوة ابن تومرت،

(١) المعجب ص ٤١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٠٢ .

واقنعوا بصحة ما قال به أو دعا إليه، فلو واجههم المنصور بالنقد الصريح، أو العمل الجاد للقضاء على دعوة ابن تومرت لنشأ عن ذلك رد فعل خطير من قبل أولئك القوم قد لا يستطيع رده أو التصدي له، وهذا بلاشك جعله يكتفي ببيان موقفه منها دون اتخاذ أى خطوات عملية ضدها.

ولكن وبالرغم من قلة ما قام به المنصور من جهدا، أو عمل مضاد لدعوة ابن تومرت، إلا أن عمله هذا كانت له نتائج إيجابية وطيبة، حيث أنه بهذا الاجراء كسر ذلك السياج الذى أحيطت به دعوة ابن تومرت، مما دعى كثيرا من الموحدين لا سيما المنصفين منهم إلى التمعن فى حقيقة دعوة ابن تومرت ودراساتها بموضوعية وانصاف، فبانت لهم حقيقتها وما تحمله من جنوح فى تفكيرها مما دفعهم إلى الأخذ بالتحلل من تعاليمها شيئا فشيئا حتى إذا ما تولى أبوالعلاء ادريس الملقب بالمأمون^(١) (٦٢٤ - ٦٢٩هـ) أعلن صراحة خروجه على تعاليم ابن تومرت كما بين للناس علانية ما تحمله هذه الدعوة من شطحات فى بعض أفكارها وقال وهو على المنبر فى مدينة مراكش يخطب الناس: «أيها الناس لا تدعوه بالمهدي المعصوم - يعنى ابن تومرت - وادعوه بالغوي المذموم فانه لا معصوم إلا الأنبياء ولا مهدي إلا عيسى^(٢) وأنا قد نبذنا أمره النجس...»،^(٣) كما يذكر ابن أبي زرع أنه بعد أن نزل من على المنبر كتب إلى جميع بلاده بتغيير سير المهدي، وما كان ابتدعه للموحدين، وجرا عليه عملهم،

(١) هو أبوالعلاء ادريس بن يعقوب المنصور تاسع أمراء دولة الموحدين، استغل الوضع المضطرب فى الدولة الموحدية فى آخر عمرها، فنبذ طاعة أخيه العادل (٦٢١ - ٦٢٤هـ) ودعا لنفسه قبوع فى أشبيلية، ثم اجابه أكثر ولاية الأندلس فى آخر عام ٦٢٤هـ فكتب إلى الموحدين الذين ببلاذ المغرب فبعثوا إليه ببيعتهم، لكنهم لم يلثوا سوى مدة قصيرة حتى نكت شيوخ الموحدين البيعة، وبايعوا يحيى بن محمد الناصر الذى تلقب بالمتنصر فغضب المأمون على شيوخ الموحدين الذين أصبح ولاؤهم حسب مصالحهم، وليس حسب المصلحة العامة، وهذا ما ساعد على أن يتخذ عدة اجراءات ضد دعوة ابن تومرت. (انظر فى تفصيلات ذلك كلام من: ابن عذارى: البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٥٣، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ٢٥٠ - ٢٥١).

(*) يقول أهل السنة والجماعة بنزول عيسى فى آخر الزمان كما توارثت بذلك الأحاديث، ويؤمنون بخروج المهدي كما صَحَّ فى الحديث أيضا.

(٢) الأنيس المطرب ص ٢٥١.

وسير ملوكهم، وأمر باسقاط المهدي من الخطبة، وازالته من الدينار والدراهم، وقال: «كل ما فعله المهدي وتابعه عليه أسلافنا فهو بدعة ولا سبيل لابقاء البدع...»^(١)

وبالإضافة إلى ما سبق فقد أرسل المأمون كتابا إلى المدن المغربية والأندلسية بين لهم فيه الخطوات التي اتخذها ضد دعوة ابن تومرت، وقد جاء في ذلك الكتاب: «... ولتعلموا أنا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق وإن لا مهدي إلا عيسى ابن مريم... وقد أزلنا لفظ العصمة ممن لا تثبت له عصمة...»^(٢)

هكذا تجرأ المأمون تاسع أمراء الموحدين فيين للناس صراحة بطلان مادعا إليه ابن تومرت، وأمرهم بنبذه والعودة إلى المنهج الإسلامي الأصيل، ولم يذكر المؤرخون أن هذا العمل لقي أى معارضة من الموحدين مما يدل على أنهم كانوا في ذلك الوقت قد بدأوا يتحللون منها لما بدا لهم الشطط في أفكارها واضحا.

(١) المصدر السابق ص ٢٥٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٢.

الخاتمة

الحمد لله ، الذى بنعمه تتم الصالحات ، وبعد : فلإني أحاول في ختام هذا البحث أن أبرز أهم النتائج التى بدت لي خلال إعدادى له ، والذى كان بعنوان : الاتجاه الفكرى لدعوة ابن تومرت - دراسة تاريخية - .

* أن ابن تومرت جدّ في بادئ الأمر ، في تكوين قاعدة قوية مؤمنة بما يدعو إليه ، أو يقول به ، وذلك لكي يضمن قاعدة شعبية لدعوته ، ثم لدولته ، ولهذا سلك العديد من السبل والوسائل المشروعة ، وغير المشروعة ، حتى يظهر دعوته للناس ومن ثم يكثر حوله المؤيدون والأنصار ، وقد نجح في ذلك نجاحا كبيرا .

* أن هناك منطلقات معينة حاول ابن تومرت أن تكون أسسا فكرية لدعوته ، ومن أجل تأصيلها في نفوس أتباعه سلك العديد من السوائل بعض النظر عن مشروعيّتها ، وقد نجح إلى حد كبير في تأصيل هذه الأسس . مؤقتاً - عند أتباعه والمقربين إليه بالرغم مما يشوبها من الشطط والانحراف .

* أن ابن تومرت قد تأثر بأراء كثير من الفرق والمذاهب الإسلامية في الاعتقاد ، والمنهج ، لا سيما الفرق الباطنية منها ، ويبدو هذا جليا في قوله بالمهدية ، والعصمة والامامة ، وهذا بلا شك من الشطحات الواضحة التى وقعت فيها دعوة ابن تومرت .

* أن هذا الانحراف في دعوة ابن تومرت هو السبب الرئيسى الذى جعل قبول الناس لها وقتيا ومرهونا بوجود ابن تومرت ، إذ أنه ما لبث الناس بعد وفاته أن أخذوا يتبينون ما فيها من غلو وشطط ، ففتر حماسهم لها ، ومع مضى الزمن ، زاد تحوّلهم عنها ، حتى أصبح زعماء دولة الموحدين خصوما لها يسعون للقضاء عليها في وضوح النهار ، وهذا التحول السريع عنها يدل بوضوح على أن هذه الدعوة كانت لا تملك مقومات البقاء .

قائمة المصادر والمراجع

أ - المصادر:-

- ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي (ت ٥٦٨هـ). التكملة لكتاب الصلة.
- تحقيق عزت العطار.
- نشر مكتبة نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٠هـ.
- الحلة السراء جـ ٢.
- تحقيق حسين مؤنس ط أولى ١٩٦٣ م.
- نشر الشركة العربية للطباعة والنشر.
- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أحمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ).
- الكامل في التاريخ.
- دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت سنة ١٣٨٥هـ (١٢ مجلد).
- ابن الأحرر: أبو الوليد اسماعيل بن يوسف (ت ٨٠٧هـ).
- روضة النسرين في دولة بني مرين، الدار البيضاء
- المكتبة الملكية ١٣٨٢هـ.
- الأشعري: أبو الحسن علي بن اسماعيل (ت ٣٣٠هـ).
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.
- تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.
- نشر مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٩هـ.
- الباروني: سليمان بن عبدالله الباروني النفوسي.
- الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية، القسم الثاني.
- نشر مطبعة الأزهار البارونية.
- البيهقي: أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيهقي (ت ق ٦هـ).
- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين.

- تحقيق وتصحيح ليفي بروفنسال .
 طبع في باريس سنة ١٩٢٨ م .
 - أخبار المهدي بن تومرت .
 تقديم وتحقيق : عبد الحميد حاجيات .
 نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس ١٣٩٥ هـ .
 - المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب .
 تحقيق عبد الوهاب بن منصور .
 الناشر : دار المنصور للطباعة والوراقة بالرياض سنة ١٩٧١ م .
 - ابن تومرت (أبو عبد الله محمد (٥٢٤ هـ) .
 أعز ما يطلب . تقديم وتحقيق عمار الطالبي .
 نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة ١٩٨٥ م .
 - ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (٧٢٨ هـ) .
 منهاج السنة في نقض كلام الشيعة القدرية .
 نشر المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٢ هـ .
 - ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ) .
 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .
 تحقيق احسان عباس .
 نشر دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٨ م .
 - الحموي : ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ) .
 معجم البلدان .
 نشر دار صادر، بيروت .
 - ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) .
 العبر وديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوى
 السلطان الأكبر .
 مطبعة بولاق بالقاهرة ١٢٨٤ هـ .
 مقدمة ابن خلدون .

- طبعة بولاق ١٢٨٤هـ.
- ابن أبي دينار: محمد بن القاسم القيرواني (ت ١١١٠هـ).
 - المؤنس في أخبار أفريقية وتونس.
 - تحقيق محمد شمام الطبعة الثانية، المكتبة العتيقة بتونس ١٩٦٧م.
 - الذهبي: أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان التركماني (ت ٧٤٨هـ).
 - دول الإسلام في التاريخ.
 - مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد سنة ١٢٦٥هـ.
 - العبر في خبر من غير.
 - تحقيق فؤاد سيد.
 - نشر مطبعة حكومة الكويت.
 - ابن أبي زرع: أبو الحسن علي بن عبدالله الفاسي (ت ق ٨هـ).
 - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.
 - دار المنصور للطباعة والوراقة بالرياض سنة ١٩٧٢م.
 - الزركشي: أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت حوالي سنة ٨٦٤هـ).
 - تاريخ الدولتين الموحدية والخفصية.
 - تحقيق محمد ماضور، ط. الثانية.
 - نشر المكتبة الفنية بتونس.
 - ابن أبي السراج: محمد بن الأندلسي (ت ١١٤٩هـ).
 - الحلل السندسية في الأخبار التونسية.
 - تحقيق محمد الحبيب الهيلة.
 - نشر الدار التونسية للنشر ١٩٧٠م.
 - السلاوي: أبو العباس أحمد الناصري (ت ١٣١٥هـ).
 - الاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى.
 - تحقيق جعفر الناصري، ط. الدار البيضاء سنة ١٩٥٤م.
 - السليمان: محمد بن الأعرج الجسني (ت ١٣٤٤هـ).

- اللسان المعرب عن تهافت المعمرين حول المغرب (مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط رقم ٢٩٧).
- الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ).
 - الملل والنحل.
 - نشر مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده (١٣٨٤هـ).
 - ابن صاحب الصلاة: عبد الملك (ت ق السادس).
 - تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين.
 - تحقيق د. عبد الهادي التازي.
 - نشر وزارة الثقافة والفنون العراقية سلسلة كتب التراث (٦٨) ١٩٧٩م.
 - ابن عذاري (أبو العباس أحمد محمد بن محمد المراكشي . ت ق ٨هـ)
 - البيان المغرب في أخبار المغرب.
 - تحقيق أميروس هويس مراندة وآخرين.
 - نشر دار كريما دنيس للطباعة تطوان ١٩٦٠م.
 - ابن العماد الحنبلي: عبد الحلي بن أحمد بن محمد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ).
 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب.
 - المكتب التجاري للطباعة والنشر ببيروت.
 - أبو الفدا: عماد الدين اسماعيل صاحب حماء (ت ٧٣٢هـ).
 - المختصر في أخبار البشر.
 - نشر المطبعة الحسينية المصرية.
 - ابن الفقيه: أبوبكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه، (ت ق ٣هـ).
 - مختصر كتاب البلدان.
 - طبع لندن سنة ١٣٠٢هـ.
 - ابن القطان: أبو الحسن علي بن محمد الفاسي (ت ق ٧هـ).
 - نظم الجمان في أخبار الزمان.
 - تحقيق محمود مكّي.

- جامعة محمد الخامس بالرباط سنة ١٩٦٤م .
- ابن قنفذ : أبو العباس أحمد بن حسين بن علي (ت ٨١٠هـ) .
الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية .
تحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي .
الدار التونسية للنشر ١٩٦٨م .
- الوافي بالوفيات .
تحقيق عادل نويهض الطبعة الثانية دار الآفاق الجديدة . بيروت ١٩٧٨م .
- ابن كثير أبو الفدا اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) . البداية والنهاية .
مكتبة المعارف ببيروت ومكتبة النصر بالرياض ١٩٦٦م .
- المراكشي : عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧هـ) .
المعجب في تلخيص أخبار المغرب .
تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي .
نشر دار الفكر بالدار البيضاء سنة ١٩٧٨م .
- المراكشي : أبو عبد الله محمد أحمد بن عبد الملك الأنصاري (ت ٧٠٣هـ) .
الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة .
تحقيق احسان عباس .
نشر دار الثقافة بيروت ١٩٧٣م .
- ابن مرزوق : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق التلمساني (ت ٧٨١هـ) .
المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن .
تحقيق ماريا خيوس .
الشركة الوطنية للنشر، الجزائر ١٤٠١هـ .
- المقرئزي : تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ) .
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء .
الجزء الأول . تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي ١٣٦٧هـ .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار .

- نشر دار صادر بيروت .
- النعمان : أبوحنيفة بن أبي عبدالله بن محمد بن حنون (ت ٣٦٣هـ) .
- كتاب افتتاح الدعوة .
- تحقيق فرحات الدشر واوى .
- نشر الشركة التونسية للتوزيع .

ب - المراجع :-

- اشباخ : يوسف .
- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين .
- ترجمة محمد عبدالله عنان - الطبعة الثانية ١٣٧٧هـ .
- الباجي : أبو عبدالله محمد الباجي المسعودي (ت ١٢٩٧هـ) .
- الخلاصة النقية في امراء افريقية .
- مطبعة الدولة التونسية ١٣٨٣هـ .
- بروفنسال : ليفي .
- الإسلام في المغرب والأندلس .
- ترجمة السيد عبدالعزيز سالم وآخرين .
- نشر مكتبة نهضة مصر ومطبعاتها .
- بروفنسال : ليفي . (جامع ومحقق) .
- مجموع رسائل موحدية من انشاء كاتب لدولة المؤمنية . ط . الدار البيضاء سنة ١٩٤١م .
- بل ؛ الفرد .
- الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم .
- ترجمة عبدالرحمن بدوى .
- نشر دار البيان للنشر والتوزيع ١٩٦٩م .
- سالم : السيد عبدالعزيز .
- المغرب الكبير العصر الوسيط ، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية .

- ط . دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١ م .
- حسن : حسن علي .
- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين .
- ط . أولى ١٩٨٠ م مكتبة الخانجي بمصر .
- درويش : عبد الحميد .
- الفلسفة الالهية عند محمد بن تومرت الامام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت ،
- مهدى الموحدين (٤٧٣ - ٥٢٤ هـ) .
- نشر دار المنار ١٤١٠ هـ .
- شعوط : إبراهيم علي .
- أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ .
- المطبعة الرابعة دار التأليف ١٩٧٦ م بمصر .
- العبادى : عبد الحميد .
- المجمل فى تاريخ الأندلس .
- نشر مطبعة السعادة بمصر ١٣٥٨ هـ .
- عبد الحميد : سعد زغلول .
- تاريخ المغرب العربي (تاريخ دولة الاغالبية والرسمتين وبني مدار والادارسة حتى قيام الفاطميين) .
- نشر منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٩ م .
- محمد بن تومرت وحركة التجديد فى المغرب والأندلس .
- نشر جامعة بيروت العربية ١٣٩٣ هـ .
- علام : عبد الله علي .
- الدعوة الموحدية بالمغرب .
- دار المعرفة بالقاهرة ط . أولى ١٩٦٤ م .
- مؤنس : حسين .
- عقد بيعة بولاية العهد .

- (مقال منشور في مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٠م، مجلد ١٢).
- محمود: اسماعيل .
 - الاغالبة (١٨٤ - ٢٩٦هـ) سياستهم الخارجية .
 - نشر مكتبة دراقة الجامعة بفاس .
 - المظفر: محمد رضا .
 - عقائد الامامية ط . الثالثة ١٩٧٣م .
 - النجار: عبدالمجيد .
 - المهدى بن تومرت ، ط . أولى ١٤٠٣هـ ، دار المغرب الإسلامي بيروت .
 - الهرفي : سلامة محمد سليمان الهرفي .
 - دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، دراسة سياسية وحضارية .
 - نشر المكتبة الفيصلية بمكة سنة ١٤٠٥هـ .